مقدمة

حتى الفراشة الجميلة، يمكن أن تتحول إلى...لعنة

فلا تثق.

الإهداء

إلى نفسي.

إلى الأيام التي صنعتني.

إلى عائلتي وصَحبي.

الفصل الأول

تلاشى صخب النهار عن مدينة نورفيل وعم صمت ليليٌّ، إلا من سمفونية يعزفها الشتاء، الذي حل ضيفًا ثقيلاً على المدينة. ينام "حي الطوب" تحت غطاء الظلام، تتكدس فيه المنازل المتداعيةُ لتشكل متاهةً من الطوبِ والحجارة. تتسرب من أبوابها أنوار هزيلة تحارب جيوش الظلامِ.

تختبئ خلف جدران تلك المنازل قصص البؤس والشقاء، وكذلك قصتي، الجميعُ نيام، يبحثون عن سلواهم في عالم الأحلام، لكنني لم أجد تلك السلوى بعد. فكلما نمت زارني ذلك الكابوس الذي يجد دائمًا

طريقة للفرار من الماضي والتسلل إلى أحلامي. ولكن حتى داخل أكثر الكوابيسِ ظلمةً، هناك نقطة ضوء تغتال الظلام. أليس من الرائع أن تكفي نقطة ضوءٍ واحدة في تبديد ذلك الكم الهائل من السواد؟ حسنًا، ذلك يعتمد على ماذا تركز، نقطة الضوء أو الظلام.

أنا فتاة تحب كوابيسها، لأن في جزءٍ منها يتواجدُ شخص ما، يجعلها جميلة بشكلٍ غريب. لو حصلت على ترياقٍ للنسيان ذات يومٍ سأفرغهُ في حوض المطبخ. ليس لأن الماضي جميل، بل لأن هنالك قطعة صغيرة من لوحة الماضي لا أريد نسيانها. لقد أضعتُها، ولكن أريد أن أتذكرها لبقية حياتي. حتى لو كان الأمر يستحق أن أعانق كابوسي كل ليلة وأنام.

أغلقت النافذة واستلقيت على السريرِ بجانبه. ابتسمتُ تلقائيًا وأنا أنظر إليه وهو نائم كأنه ملاك هبط من السماء وقرر العيش على الأرضِ، العيش معي. إنه

هدية الحياة التي منحتني إياها كاعتذارٍ عن كل ما حصلَ لي منذ أن كنتُ في الثامنة من عمري. إنه الأمل الذي أنقذني قبل أن ألقي بنفسي من الجسر بدقيقةٍ واحدة. إنه أخي الصغيرُ يزن، ابن أبي الجميل وهدية الحياة. عانقته وأغمضت عينايَ واستسلمتُ لكابوسٍ بطعم الحب.

تسللت أشعة الشمس من خلال ستائر الغرفة لتعبثَ بأجفاني وتوقظني من نومي. استيقظتُ بكسل ورأسي لا يزال مثقلًا بالأحلام المزعجة. أزحتُ عني الغطاءَ، واتجهتُ نحو الحمام. غسلتُ وجهي وأخذت أتأمل ملامحي في المرآة. بشرة حنطية ورثتها من أبي. شعر بني مجعد، يشبه في لونه الأرض، أما عيناي فكانتا زرقاوتان، بلون البحر، ورثت صفاءهما من أمي. كان والدي يخبرني دائمًا أن لي جمال خاص يجمع بين صلابة الأرض وهدوء البحر. ورغم أنني لم

أتجاوزِ الخامسةَ والعشرينَ بعد إلا أنني أشعرُ أحيانًا بأني في الثلاثين. فليست السنون هي ما تجعلنا كبارًا بل الحياة ومواقفها. يمكن لموقف أن يجعلك طفلاً في الأربعين من عمرك وآخر تشيخ بسببه وأنت في العشرين، ويسهلُ على المرأة القفزُ بين السنينِ فهي طفلةٌ الآنَ وربما عجوز بعد دقيقة، كل ذلك يعتمد على كلمة أو حتى نظرة.

في الحقيقة لا أصدقُ كثيرًا كريماتِ التجميل التي تخفي التجاعيد ولا النصائح الطبية لعدم ظهورها أو تأخيرِ ظهورها على الأقل. بالنسبة لي أكثرُ ما يجعل المرأة صغيرةً في السن هو كريم سحري اسمهُ الحب، ولست أملكُ في خزانة قلبي كريمًا كهذا. كان يوجد واحد منذ وقت طويلٍ جدًا ولكنه اختفى، لقد سُرق مني في ليلة مظلمةٍ وممطرة ثم شختُ بعدها ووجدت بعض التجاعيدِ طريقها إلى وجهي.

جمعتُ شعري في ذيل حصان، ثم عدت إلى غرفتي ووقفت أمام السرير الذي ينام عليه شريكي في الغرفة. ابتسمت تلقائيًا وأنا أنظر إليه، جلست على حافة السرير وبدأت أوقظه برفق، نهض وهو يفرك عينيهِ الرماديتين اللتان ورثهما هو أيضًا من والدتِه.

قلت بحماس:

ـ صباح الخير يا يزن، لقد حان وقتُ الاستيقاظِ ليوم جديد مليء بالمغامرة.

هز يزن رأسه بالإيجاب، ولم أنتظر ردًا منه، فأخي لا يزال صامتًا بعد صدمة موت والدّيه في حادث سير أمام عينيه. بقي هو الناجي الوحيد. عندما سمعت بوفاة أبي، الذي لم أره منذ سنوات، شعرت أني بقيت وحيدة، وقررت أن أضع حدًا لحياتي. حتى جاء اتصال من أحد أقارب زوجة أبي، أخبرني عن أخي وأنني ولية أمره الآن، بينما رفض هو الاعتناء به بعدما أصيب بصدمة

حادة أفقدته القدرة على الكلام. لكنه لم يتأخر في الاستيلاء على ميراث أبي الذي كتبه باسم زوجته قبل وفاتهما. ورغم كل هذا، كان وجود أخي أكثر قيمة من المال. وجود شخص يربطك به رابط الدم بعد أن عشت وحيدًا لسنوات، أمر مطمئن للغاية، لدرجة أنه يثنيك عن وضع حد لحياتك في اللحظة الأخيرة، وهذا ما حصل معي.

بعد وفاة أمي بسنة، تزوج أبي الذي كان لا يزال شابًا ثم اضطر لمغادرة المدينة للعمل وعشت مع زوجته وكالقصص الخيالية، كانت زوجة أبي سيئة الطباع تعاملت معي بقسوة وخاصة عندما يبدأ أبي بالحديث أمامها عن أمي وكم أذكره بها، وهي التي كانت تريد التخلص من كل شيء يذكر زوجها بامرأته الأولى الملابس، والأثاث، وأخيرًا تخلصت مني أنا في اليوم الثاني من رحيل أبي، وتركتني في مكان مخيف للغاية.

عشت بعيدة عن والدي لسنوات، سألت لماذا لم يعد للمنزل، وكرهته لأنه لم يفعل، حتى عرفت الحقيقة الصادمة: كان يعتقد أنني ميتة، حتى أنني رأيت قبري.

ما حدث بعد ذلك كان الأكثر بشاعة، لدرجة أنني اشتقت للعيش مع زوجة أبي، لأن الأشرار يتفاوتونا أحيانًا في درجة الشر.

ساعدتُ أخي على ارتداء ملابسه، ثم توجهتُ إلى المطبخ لإعداد الإفطار. كنت أفكر وأنا أقلب البيض في المقلاة، في مفاجأة أحضرها ليزن يوم غدٍ بمناسبة عيد ميلاده، انتشلني من لُجِ ذكرياتي صوت البيض الذي كاد يحترق.

جلسنا على طاولة الإفطار، وبدأ أخي كعادته بتناول طعامه في صمت، أما أنا فكنت أتحدث عن الأشياء التي يحبها، الحيوانات، مدينة الملاهي، وكرتون دورايمون.

بعد الفطور، جهزت حقيبتي وأخذت حقيبة شقيقي. وقبل أن نغادر الشقة، طرق الباب. قطبت حاجبيّ؛ فلم يعد هنالك وقت لاستقبال ضيف. فتحتُ الباب وظهرت من خلفه فتاة أقصر مني بقليل، ذات شعر كستنائي قصير وعينين بندقيتين محمرتين من شدة البكاء. لم أكن بحاجة لسؤالها عن سبب بكائها، فلم تكن هذه المرة الأولى التي تأتي فيها سارة بهذه الحال. كما لم تكن هذه المرة الأولى التي تتشاجر فيها مع زوجة أبيها. كنا نتشارك همًا واحدًا، وكنت أكثر من يفهمها لأنني مررت بما مرت به. غير أن الفرق الوحيد هو أن زوجة أبيها لم تتخلص منها، وكانت أكثر خلافاتهم عن الزواج. ربما تريد تزويجها لابعادها عن المنزل، وربما هي طريقة أخرى للتخلص منها، ولكن أن تلقي بها في حضن زوج أفضل من أن تلقي بها في أحضان الجحيم. في النهاية، يتفاوت الأشرار في درجة الشر.

عانقتُ سارة وربتُ على كتفها، ثم خاطبتها بابتسامة:

_ لا تقلقي، سيمر كل شيء، وأنا سأقف إلى جانبك دائمًا.

ابتسمت وعادت لها شخصيتها الحيوية. ثم ارتمت على الأريكة وقالت بمرح:

_ لقد اشتقت إلى أريكتي الجميلة. تستطيعين الذهاب إلى العمل، لا تقلقي، سأعتبر الشقة شقتي.

ثم لوحت ليزن وأضافت:

_وأنت أيها البطل الصغير، أراك لاحقًا.

ضحكتُ على تصرفات صديقتي الطفولية وغادرتُ الشقة. كنت أتفقد حاجياتي في حقيبتي عندما مرَّ من جانبي رجل لم أستطع رؤية وجهه، كان يضع قبعة رياضية سوداء تخفي ملامحه، مرّ من خلفي بهدوء دون أن ينطق بكلمة، تعجبت من بروده ألا يمكنه قول

"صباح الخير" لجارته، ثم تبعته فتاة صغيرة بعمر يزن تقريبا، مغبرة الوجه ترتدي ثوبًا ورديًا قد تآكلت أطرافه، لو لم تكن تمشي خلفه برغبتها، لرجحت أنه خطفها. انتهيت من تفقد أشيائي وأمسكت يد أخي وخرجنا من البناية.

كان الطريق إلى مركز العناية بأطفال الذين يعانون من صدمات حادة، يستغرق حوالي نصف ساعة. وطوال الطريق، لم أصمت لحظة وأنا أحكي ليزن قصصًا خيالية عن أبطال شجعان وأميرات في ممالك بعيدة. كان ينصت باهتمام، ويبتسم بين الحين والآخر.

وصلنا أمام باب المركز وانحنيتُ إلى مستوه، نظرت إلى عينيه بفيض من الحب والحنان، ثم قلت بابتسامة:

_ أحبك كثيرًا يا أخي الجميل. إنك الأمل الوحيد الذي يجعلني أتشبث بهذه الحياة.

هربت دمعة من عيني، لكن سرعان ما امتدت يد يزن الصغيرة لمسحها. فرحتُ وعانقته بقوة حتى شعر بحرارة أنفاسي، ثم وقفتُ وقلتُ بمرح، متجاهلة شعور القلق الذي لم يفارقني منذ أيام:

_سأعود في المساء لأخذك أيها البطل الصغير. استمتع بيومك وأحسن التصرف.

هز يزن رأسه بالإيجاب كالعادة. قبّلت جبينه وسلمته إلى أحد المشرفين، وانطلقتُ نحو عملي. في الواقع لم يكن لي عمل لقد فصلت من الشركة التي أعمل بها بسبب كثرة غيابي، لقد كان أخي يمر بأوقات عصيبة وكنت أظطر للبقاء معه أو الذهاب لتنزه معه وحضور اجتماعات الأولياء، وكي لا يشعر أنه عبأ عليّ، خبأت أمر فصلي عن العمل عنه وعن سارة ويجب أن أجد عملا أخر الآن. توقفت في الشارع وأخرجت قلادة من تحت سترتي وبقيت أنظر إليها شاردة الذهن. كانت

قلادة فضية تنتهي بفراشة صغيرة. ابتسمت وأنا أنظر إليها وأستمد قوتي منها. وأشعر بوجوده، فجأة، لمحت تلك اليد الضخمة تمسك بالقلادة وتقتلعها بعنف من رقبتي.

فر اللص هاربًا، صرخت بأعلى صوت "لص! لص!"، لكن لم يكترث أحد لي، لقد كنت في وسط المدينة في شارع مكتظ بالأرجل المتسارعة وهنا لا يأبه شخص بك حتى لو اختطفوك أنت أمام أعينهم، ولكن أحدهم كسر هذه القاعدة، فقد هب لنجدتي شاب كان يرتدي قميصاً أبيض وجينز أزرق، ركض خلف السارق وركضت أنا خلفه، وكان الأمر أشبه بلعبة فيديو.

أركض وأحاول تجنب العوائق كالدراجة وعربة الحلوى والتفريق بين الحبيبين الذين يلتقطون صورة تذكارية جعلتها سيئة عندما أوقعت الفتى دون قصد فوق القمامة.

أما شريكي في الملاحقة كان يبدو أكثر سلاسة مني وكأنه عداء أولمبي، يركض بسرعة، يقفز ويتجنب كل الحواجز ببراعة.

انتهت الملاحقة، ووقفت مغمضة العينين، أحاول جمع شتات أنفاسي الهاربة. وعندما فتحتهما، وجدت نفسي في زقاق مقفر ينتهي بجدار عال، مع لص وشاب لا أعرفه، التفت اللص وألقى بالقبعة التي كانت تخفي ملامحه أرضًا لينكشف وجهه ذو الملامح المخيفة، تلك الندبة تحت عينه جعلت منظره أشبه بقرصان من العصور القديمة.

أردف الشاب بنبرة واثقة:

_أعد القلادة، هيا.

أطلق اللص ضحكات كشفت عن أسنان تقاوم السقوط:

_ابتعد عن طريقي أيها الغِرّ وخذ تلك الفتاة معك، لا تجعلني أغير اختصاصي من السرقة إلى القتل.

ابتسم الشاب وأردف:

_ليس قبل أن نسترجع القلادة، هيا، هاتها.

_ببدو أنك لا تفهم كلام البشر يا هذا!... حسنًا، سأريك.

انطلقت مني صرخة لا إرادية عندما اقترب اللص سريعًا من الشاب، وكاد يسدد لكمة على وجهه. لكن الشاب تفاداها بسرعة، وغاصت قبضته القوية في معدة اللص، حتى شعرتُ بأنه سيلفظ أحشائه.

ثم تتالت اللكمات، ولم يستطع اللص أن يؤذي شعرة واحدة من الشاب، استمر الشجار لدقائق معدودة قبل أن يتجمع عدد من الرجال حولنا، كأنهم قطيع ذئاب جاءت لدفاع عن أحد أفرادها.

تراجع الشاب إلى الخلف، وجعلني أحتمي خلف ظهره وظلت عيناه تراقب الرجال ذوي الأجساد الضخمة. ثم خاطبني بنبرة ساخرة دون أن يلتفت:

_هل تعرفين قاعدة البطل الشجاع عندما يشتد الخطر حوله؟.

أجبت بتلعثم:

_لا أعرف.

و فجأة، رفع صوته قائلاً وهو يسحبني من يدي

_الهروب.

وركضنا بعيدًا بعد أن نجح في إسقاط رجلين خلفنا. ركضت خلفه وهو لا يزال يمسك بيدي وأجزم بأنني لن أركض في حياتي كما فعلت في هذا اليوم. وصلنا أخيرًا إلى مقهى في زاوية الشارع، دخلناه بسرعة، وجلسنا

في زاوية المقهى و بعد أن تأكدنا أنه لم يعد أحد يلاحقنا.

نظر إلي الشاب وسأل:

_هل أنتِ بخير؟.

قلت وأنا أحاول السيطرة على ضربات قلبي

_نعم، شكرًا لك.

أضاف قائلاً:

_هل تريدين شيئًا تشربينه؟.

نظرت إليه وقلت بتردد:

_ كأس ماء، من فضلك.

طلب من النادل كأسًا من الماء وعصيرًا له. رفعت رأسي ونظرت إليه، كانت تقاسيم وجهه حادة وعيناه

بلون القهوة تصبح عسلية عندما تتحد مع أشعة الشمس المتسللة من النافذة بجواره.

بعد أن شربت الماء، شعرت ببعض الهدوء، ولكني أدركت أنني فقدت قلادتي بعد كل ذلك الركض. شعرت بالحزن، وسألني الشاب بقلق:

_ما بكِ؟ لماذا عبستِ فجأة؟.

أخفضت رأسي بحزن وأجبت:

_ لقد فقدت قلادتي.

_هل هي ثمينة جدًا؟.

_نعم، لكن معنويًا وليس ماديًا.

_ اممم... حسنا، أدرك ذلك.

رفعت رأسي ورأيته يمسك بالقلادة ويفحصها كخبير في المجوهرات. صرخت بفرح حتى انتبه الجميع لنا،

ولكنني لم أهتم. أخذت القلادة منه واحتضنتها كأنني أطمئنها بأنها عادت إلى مالكتها بأمان. بينما ينظر إليّ باستغراب، ثم لبست قلادتي وأخفيتها تحت قميصي، وقمت بشكر الشاب على مساعدته وغادرت بسرعة دون أن أعطيه فرصة للحديث.

لكنه تبعني إلى الخارج وأوقفني. وقال:

_ألا أستحق أن أعرف اسمك بعد كل ما فعلته؟.

شعرت بأنني ناكرة جميل لأنني لم أسأله عن اسمه أو أبدي اهتمامًا بمعرفته. التفت ناحيته وقلت:

_أنا يارا.

ابتسم وأردف:

_وأنا أرسلان. هل يمكن أن نصبح أصدقاء؟.

_لا أريد أصدقاء، آسفة.

_كما تريدين. لكن خذي رقمي. ربما تحتاجينه إذا سُرقت قلادتك مرة أخرى.

_لا أظن أنها ستُسرق ثانية.

_كل شيء ممكن في هذه الحياة.

اقترب مني بضع خطوات ومدّ لي ورقة تحمل رقم هاتفه كان قد كتبه في المقهى قبل خروجه وأردف:

_الأمر متروك لك، احتفظي بها أو ارميها في القمامة. والآن، وداعًا.

التفت وغادر، وبقيت أراقبه وهو يبتعد حتى اختفى عن أنظاري. ثم قفزت بهلع عندما لاحظت الوقت على هاتفي، إنها السابعة مساءً، ولم أعد بيزن بعد من المركز. وهذا يعني أنني سأركض مجددًا حتى موقف الحافلة.

عندما وصلت إلى بوابة المركز، لمحته ينتظرني بجانب المعلمة، وقد انصرف الأطفال منذ فترة طويلة. وقفت لحظة، التقطت أنفاسي وجمعت قواي. نظرت المعلمة إلي بقلق، وعندما اقتربت منها، قلت بصوت خافت:

_أعتذر عن تأخري، لقد واجهت بعض المشاكل.

ردت المعلمة بلطف:

_لا بأس، المهم أنك بخير الآن.

أمسكت بيد يزن الذي بدا متحمسًا لرؤيتي، وبدأنا نشق طريقنا نحو المنزل. طوال الطريق، كنت أحاول تلطيف الجو بحديثي المعتاد عن مغامرات الأبطال والقصص الخيالية. كنت أرى بريق الفرح في عينيه بين الحين والآخر، وهذا ما كان يمدني بالقوة.

وصلنا إلى الشقة مع حلول المساء، كانت شقتنا الصغيرة تعج بالصمت. وضعت حقيبتي على الأريكة واستندت عليها لبرهة، ثم اتجهت إلى المطبخ لتحضير العشاء. في هذه الأثناء، دخلت سارة من الغرفة المجاورة، بدت عليها علامات القلق والاهتمام.

_ يارا، ماذا حدث اليوم؟ تبدين متعبة وقلقة.

سألتني وهي تجلس إلى الطاولة. تنهدت وسحبت كرسيًا وجلست أمامها، بدأت أحكي لها كل ما حدث منذ سرق اللص قلادتي وكيف تدخل الشاب المجهول لاستعادتها. كنت أروي التفاصيل بدقة، وأحاول أن أوصل كل مشاعر الخوف والغضب والارتياح التي شعرت بها.

_لا أستطيع تصديق أن كل هذا حدث في يوم واحد! ومن هذا الشاب الذي ساعدك؟ سألتني سارة بنبرة مليئة بالتعجب.

ضحكت قليلاً وقلت:

_كان مجرد شخص طيب في الوقت المناسب.

تأملت سارة قليلاً ثم قالت بابتسامة ماكرة:

_ربما هذه بداية قصة حب جميلة. تبدين كبطلة في فيلم رومانسي، يظهر البطل في اللحظة المناسبة وينقذها.

سرعان ما أنكرت الأمر في ذهني لا يمكنني حتى التفكير فيه لأن قلبي ملك شخص أخر لذلك قلت بلامبالاة

_لا أعتقد أنه كان أكثر من مجرد موقف عابر.

استمر حديثنا عن الحب والمواقف الغريبة التي قد تكون بدايات لعلاقات جميلة. كنت أروي لها قصصًا عن مغامرات الحب التي قرأتها في الكتب، وكيف أن البدايات الغريبة غالبًا ما تقود إلى نهايات سعيدة.

وأنا أستعد للنوم، كنت أفكر في كل ما حدث. على الرغم من التعب والإجهاد، شعرت بشيء من الأمل. ربما كان ما حدث اليوم تذكيرًا لي بأن الحياة مليئة بالمفاجآت، وأنه يجب عليّ دائمًا أن أكون مستعدة لتقبلها برحابة صدر وأقطع مع الماضي الذي لا رجعة إليه ربما حان الوقت لبدأ حياة جديدة وتحرير قلبي من ملك شخص غادرني منذ سنين ولا أعلم حتى إن كان موجودا في هذه الحياة أم لا.

وفي اليوم التالي، أوصلت يزن إلى المدرسة كالعادة. بعد ذلك، توجهت إلى السوق، أشق طريقي بصعوبة بين باعة الرصيف الذين يعرضون بضائعهم، وأصواتهم ترتفع بلا انقطاع. كانت الأرض تحت قدمي طينية تزيد من تعبي وعندما وصلت إلى قلب السوق، وجدت نفسي محاطة بسيل جارف من الناس.

توقفت أمام محل بيع لعب الأطفال، ولمعت عيناي عندما رأيت دمية دوريامون الناطقة في واجهة المحل. فكرت في شقيقي وكم سيفرح إذا قدمت له هذه اللعبة كهدية في عيد ميلاده الذي يصادف اليوم. دخلت المحل بسرعة، واشتريتها. وتوجهت إلى المركز لأخذه والذهاب مع لمدينة الملاهي، عندما وصلت وجدته ينتظرني في الخارج ممسكاً بيد المعلمة. ركضت نحوه وعانقته بحب شديد، قائلة:

_عيد ميلاد سعيد يا عزيزي يزن.

ثم أخرجت اللعبة من خلفي، وفرح بها كثيرًا.

_المفاجآت لا تزال طويلة يا أخي الجميل، سنذهب إلى مدينة الملاهي.

قلت له بابتسامة عريضة.

أخذت يزن إلى مدينة الملاهي. كانت تبدو لمن يراها لوحة فنية مليئة بالألوان، الجو مليئاً بالمرح والضحك، شعرت براحة في هذا المكان لأن الأطفال يملؤونه وأرواح الأطفال نقية جدًا تجعلك سعيدا بمجرد رؤيتهم وهم يلعبون ويمرحون .

ركض يزن نحو الألعاب بفرحة عارمة، وأخذ يركب اللعبة تلو الأخرى في سعادة . كنت أراقبه وهو يلعب، وقلبي ممتلئ بالفرح لرؤيته سعيدًا.

ثم تجمع الحشد حول مهرج يقوم بعروضه المضحكة وقفنا لمشاهدته، وفجأة، شعرت بيد أخي تنسحب من يدي. نظرت حولي بلهفة، وبدأت أصرخ باسمه. لكنني لم أتمكن من رؤيته في الحشد. بدأت أدفع الناس من طريقي بقلق شديد، حتى لمحت رجلاً ذو قبعة سوداء ومعطف أسود يمسك بيد يزن. ركضت نحوه بجنون، وبدأت أصرخ وأبعد الناس عن طريقي.

لكن عندما وصلت، كان الرجل قد غادر مدينة الملاهي وأدخل يزن إلى سيارة سوداء.

كانت الأمور تحدث بسرعة رهيبة، حتى أنني لم أستوعب ما يجري. صرخت بأعلى صوتي وركضت بكل قوتي خلف السيارة، والدموع تنهمر من عيني دون توقف. لكن السيارة كانت أسرع، تبتعد شيئًا فشيئًا حتى أصبحت نقطة صغيرة في الأفق.

انزلقت قدماي فجأة، فسقطت على الأرض، وانخدشت يدَيّ من الاحتكاك بالأسفلت. شعرت بالألم يجتاح جسدي، رفعت رأسي وراقبت السيارة تتلاشى شيئًا فشيئًا حتى ابتلعها الطريق وغاب عن ناظري أملي الوحيد في الحياة سيطر عليّ الشعور بالعجز. لم يكن هناك أحد، كان الطريق خاليًا تمامًا، وكأن العالم تآمر ضدي ليجعلني أواجه هذا الكابوس وحدي. دموعي

انهمرت بغزارة وأنا أركض بلا هدف، أبحث عن مساعدة، أصرخ باسم شقيقي الذي اختفى.

وسط ضباب مشاعري المتضاربة والخوف الذي يمزق قلبي، شعرت بإحباط شديد ورغبة جارفة في الهروب من كل شيء. ركضت إلى منتصف الشارع، عيناي تتجولان بارتباك. كنت أبحث عن أي دليل، أي إشارة تقودني إلى مكان شقيقي. ولكنني لم أكن أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب.

وقفت في منتصف الشارع، مرتعشة ومليئة بالخوف، أمسكت هاتفي بيدين مرتعشتين وأخذت الورقة التي لا تزال في حقيبتي واتصلت بأرسلان، وكان صوتي المتقطع يخرج بصعوبة:

_أرجوك ساعدني، أنا الآن بالقرب من مدنية الملاهي وسط المدينة، أرجوك تعال بسرعة.

عندما وصل أرسلان بدراجته النارية كنت منهارة على الرصيف، والدموع لا تتوقف عن النزول. أمسك بيدي وساعدني على الوقوف، وعيناه تملؤهما القلق. لم أستطع التحدث، كل ما استطعت فعله هو البكاء.

أردف بنبرة جادة عكس طباعه المرحة:

_ إلى أين تريدين أن أخذك؟.

_إلى شقتي في حي الطوب.

قلت بعجلة لأنني أردت العودة للمنزل واستيعاب ما يحصل هناك خلف جدران الشقة دون أن يرى أحد انهياري لأني أوشك أن أنهار كجبل جليدي أحرقته أشعة الشمس، ركبت خلفه على الدراجة، وشعرت بالرياح تلفح وجهي بينما كنا ننطلق بسرعة. لم أشعر بشيء طوال الطريق وكأنني في دوامة حتى توقفت عجلات الدراجة النارية ونزلت منها ثم صعدت عبر

السلم المتهالك إلى شقتي في الطابق الثاني وتردد أرسلان في اللحاق بي لكنني أومأت له، فتبعني أخرجت المفتاح وسقط ثلاث مرات قبل أن يستقر في يدي وأفتح الشقة، جلست على الأريكة، وأغمضت عيناي محاولةً تهدئة نفسي، لكن الصور والأفكار المرعبة كانت تهاجمني بلا توقف. كان اليوم الذي بدأ بسعادة وفرح قد تحول إلى كابوس مروع، جاء صوت سارة من المطبخ وهي تقول:

_يارا هل عدتِ؟.

لم تكمل كلامها وغص صوتها عندما لمحت أرسلان واقف أمام الباب فقد نسيت أن أدعوه للجلوس، وكأن كل شيء حولي تجمد في تلك اللحظة. كان عليّ أن أشرح لهما كل ما حصل، لأنني لم أعد أملك سوى أرسلان وسارة لمساعدتي في هذا الموقف الصعب.

جلس أرسلان على الكرسي وجلست أنا وسارة على الأريكة، حاولت ترتيب أفكاري بينما كانا ينتظران أن أبدأ الحديث.

_يزن... لقد خُطف.

قلت بصوت متهدج ثم رتبت الكلمات في ذهني وأضفت:

_كنا في مدينة الملاهي، وكنت أمسك بيده... وفجأة اختفى. رأيته مع رجل يرتدي معطفًا أسود وقبعة وأخذوه في سيارة سوداء. حاولت الركض خلفهم لكنني لم أستطع اللحاق بهم.

شعرت بأن الدموع تعود لتغمر عيناي، لكنني حبستها نظرت إلى أرسلان وسارة، ورأيت الرعب في أعينهما كانا يحاولان البقاء هادئين لأجلي، لكنني كنت متأكدة أن القلق ينهش قلبيهما أيضًا.

_علينا الاتصال بالشرطة، هذا هو أفضل ما يمكننا فعله الآن.

قالت سارة بنبرة حازمة.

أومأت برأسي موافقة، لكن قلبي كان يخفق بشدة. كنت أخشى أن يؤدي الاتصال بالشرطة إلى تفاقم الوضع. ماذا لو غضب الخاطفون وأذوا يزن؟ لم أكن أستطيع تحمل فكرة أن يحدث له شيء.

قبل أن ترفع سارة السماعة، رن هاتفي فجأة. تجمدت في مكاني، وتبادل أرسلان وسارة نظرات قلقة

نظرت إلى الشاشة ورأيت رقمًا مجهولًا، رفعت السماعة بيد مرتعشة وقلت: "من معي؟"

سمعت صوتًا باردًا ورتيب يقول:

_أخوك معي. إن أردته، تعالي غدًا إلى العنوان الذي سأرسله لك. إياك أن تتهوري وتخبري أحدًا، وإلا فلن تري أخاك مجددًا.

انقطع الخط وظل صوت انقطاعه يتردد في أذني وشعرت بأن الأرض تهتز من تحتي. أخبرتهما بما قاله الخاطف وشعرت بيد أرسلان تربت على كتفي، ثم قال بصوت هادئ:

_ سنفكر في خطة، لن ندعهم يؤذون شقيقك، أعدك بذلك.

نظرت إلى سارة، التي كانت تحاول جاهدة الحفاظ على هدوئها وإخفاء نظراتها القلقة وهي تقول بنبرة مطمئنة:

_سنجد طريقة لإعادة يزن. لا تقلقي، يارا ، نحن هنا معك.

كانت الأفكار تتزاحم في رأسي، والخوف يسيطر على قلبي. كيف سأواجه هؤلاء الخاطفين؟ ماذا يريدون؟ ولماذا أخذوا يزن؟ كان شعور العجز يمزقني من الداخل، لكنني لم أكن أستطيع الاستسلام الآن.

نامت سارة على الأريكة بجانبي، بينما ضل أرسلان مستيقظاً، جالساً على الكرسي إلى يميني. بقينا صامتين للحظات، ثم لاحظ الجروح في يدي، فسألني بصوت هادئ:

_تؤلمك؟.

نظرت إليه وقلت بحزن:

_وما ألمهم أمام ما أشعر به من فقدان أخي؟.

حزن عليّ ثم سأل:

_هل لديكِ حقيبة إسعافات هنا؟ يجب أن نداوي الجرح حتى لا تتدخل الجراثيم.

أشرت بيدي إلى مكان حقيبة الإسعافات فأحضرها بسرعة وقرب كرسيه حتى أصبح أمامي. تردد قليلاً قبل أن يمسك بيداي، استخدم قطعة قماش مبللة بالكحول لتطهير الجروح، وكانت لمسات يديه لطيفة كأنما يحاول أن يقلل من ألم التطهير بقدر ما يستطيع. كان يمرر القماش بلطف على الجروح، متجنباً المناطق الأكثر إيلاماً، ثم وضع الضمادات بعناية على الأماكن المصابة.

وأثناء ذلك، سألني بصوت يحمل بين طياته الكثير من الفضول والحزن:

_أظن أنك لا تملكين سوى شقيقك، صحيح؟.

نظرت إليه وأجبت بهدوء:

_صحيح.

_أتمنى أن يعود لك سالمًا.

_أتمنى ذلك أنا أيضًا.

_وأنا لا أملك أحدًا.

سألته بفضول:

_أين عائلتك؟.

أجاب بصوت مثقل بالذكريات:

_هربت من أمي وأبي. لقد غادرا البلد ورفضت الذهاب معهما، كانوا يفرضون عليّ نوع حياة تعجبهم ولم يسألوني ماذا أريد.

سألت بتعجب:

_ماذا يعمل أبواك؟.

أجاب:

_رؤساء شركة تدير سلسلة مطاعم.

_لماذا لم تلتحق بهم؟ أتظن الفقر والتسكع في أزقة الأحياء الفقيرة أمر ممتع؟.

_أريد أن أكون حراً. هذا ما طلبته.

ابتسمت بحزن وقلت:

_أتمنى لو كان لدي أم وأب أتجادل معهم في هذه الأمور. عليك أن تكون سعيداً بهذا.

نهض أرسلان بسرعة وكأنه يتحاشى الخوض في هذا الحديث أكثر من ذلك، كي لا يصل إلى نقطة لا يجب الوصول إليها. فلكل انسان نقطة عمياء داخله يحاول دائما أن يخفيها عن الجميع.

ودعني قائلاً بصوت واثق:

_لا تقلقي، سنجد يزن ونعيده. نامي جيداً، وسيكون كل شيء على ما يرام غداً.

كان في صوته طمأنينة حاول نقلها لي، لكن عينيه كانتا تحملان بعض الشكوك والقلق. رافقته إلى الباب محاولة التمسك ببعض الأمل من كلماته وقبل أن يغادر نظرت إليه وقلت بصوت خافت ولكنه مفعم بالامتنان:

_شكراً لك، أرسلان.

ابتسم ابتسامة دافئة، ثم غادر بهدوء، وعندما رحل، شعرت بوحدة ثقيلة تجتاحني. عدت إلى الداخل وسحبتُ لحافًا لتغطية سارة، وعدت إلى غرفتي، نظرتُ حولي، حيث كل شيء في الغرفة يذكرني بأخي، الألعاب المتناثرة والرسومات المعلقة على الجدران.

جلستُ على السرير، وأمسكتُ بلعبة جان المحبوبة، لعبة دورومیون المحشوة بالصوف، وجدتها في يده عندما ذهبت لاستلامه من خاله اللئيم، وعلمت أنها من والدي.

ضممتها إلى صدري وكأنني أحتضن أخي الصغير وأبي معًا، شعرتُ بدفء الذكريات يغمرني، ماذا لو لم يحصل كل هذا وإجمتعنا نحن الثلاثة في منزل واحد. كنت سأعد لهم الطعام وأبي يلعب الكرة مع يزن في الحديقة ثم يركض لداخل حتى يختلس من الصحن قطعة لحم انتهيت من تحضيرها لكنني أضربه برفق على يده الصغيرة ويبدأ ببكاء مزيف وهو عائد إلى أبي ليشكوه مني. كانت ستكون حياتنا رائعة ومليئة بالحب والدفىء لكن دائما للقدر كلمة أخرى وعلينا أن نطيعه جميعا، فالسفينة الذاهبة لشمال قد يتغير طريقها في أي لحظة وتتوجه للجنوب لأن للعواصف رأي أخر، ولعواصف الحياة رأي أخر دائما. لم أستطع منع الدموع من الانهمار، فبكيتُ بصمت في الغرفة المظلمة، ومرت الليلة ببطء، وكأن الوقت قد توقف في هذه الشقة الصغيرة. كانت الأفكار تقيم حفلة صاخبة داخل رأسي

كلما حاولتُ أن أنام، أرى يزن يصرخ وينادني وأخيراً حل الصباح وانبعث نور النهار من خلف الستائر الرقيقة، معلنًا عن بداية يوم جديد، يوم يحمل معه الأمل والقلق معاً. نهضتُ ببطء، جسدي منهك وروحي مثقلة بالهموم. توجهتُ نحو النافذة، سحبتُ الستائر قليلاً لأسمح لأشعة الشمس أن تتسلل إلى الداخل. كنتُ أتمنى أن تحمل لي هذه الأشعة دفئاً جديدًا، وأملًا جديدًا.

نظرتُ إلى الخارج، إلى الشوارع التي بدأت تستيقظ هي الأخرى. رأيتُ الأطفال يسيرون إلى مدارسهم، والأمهات يتحدثن بلهفة على الأرصفة، والحياة مستمرة بشكل طبيعي. نعم هي تستمر دائما حتى لو دعستك تواصل طريقها وكأن لا شيء يحدث، لكن بالنسبة لي، كان العالم مختلفًا تمامًا. كان العالم خاليًا من يزن، وهذا الفراغ يلتهمني من الداخل.

فجأة، انفتح الباب وظهرت من خلفه سارة بشعر مبعثر وعينان قلقتان كانت تلوح بظرف في يدها، كان ظرفًا أسود يلمع تحت ضوء الغرفة الخافت. ويد سارة ترتعش وهي تمسك به، وكأن الظرف يحمل قنبلة توشك أن تنفجر. قالت بصوت خافت:

_لقد وجدته تحت الباب فور استيقاظي.

تقدمت نحوها، وأخذته وأن أحاول أن لا أجعل يداي ترتعش . كان باردًا رطب الملمس عليه ختم فراشة دموية منقوشة بدقة، شعرتُ بدفء الختم تحت أصابعي، تسارعت دقات قلبي، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أفتح الظرف، وأسحب الورقة المطوية بعناية بداخله، فتحتها ببطء، كان هناك عنوان مكتوب بخط يد أنيق وواضح. العنوان كان" غابة الضاحية الجنوبية"

قرأت العنوان بصوت مرتجف، وأعدت قراءته عدة مرات للتأكد من أنني لم أخطئ. شعرتُ بأن العالم يدور

حولي، وكأنني على وشك السقوط في دوامة من القلق والتوتر. سارة كانت تقف بجانبي، وملامح وجهها تعكس القلق ذاته، سألتها بصوت خافت:

_هل تعتقدين أن هذا العنوان سيقودنا إلى يزن؟.

أجابت بصوت مليء بالقلق والأمل معًا:

_لا أعرف، لكن يجب أن نحاول. ليس لدينا خيار آخر.

نهضتُ من مكاني، وشعرتُ بأنني مستعدة لمواجهة أي شيء من أجل أخي. نظرتُ إلى سارة وقلت بحزم:

_سوف أذهب إلى هذا العنوان، وسأجد يزن.

حاولت أن تعترض عن ذهابي لوحدي، فهمت ذلك من نظراتها، فغادرت الغرفة دون أن أسمح لها بالتكلم جهزت نفسي للخروج ولم أعلق ببنة شفة. على تعليقات سارة التحذيرية. وعندما فتحت الباب وجدت

أرسلان أمامي، نظرت إليه، شعرت بشيء من الطمأنينة ولكن لن أسمح له بمرافقتي

قلت بإصرار:

_سأذهب لوحدي.

لكنه وقف أمامي مثل جدار بشري مانعًا إيايّ من الخروج وقال بحزم:

_لن تذهبي لوحدك..سأرافقك.

_لا.. لن أسمح بذلك.

_قلت سأرافقك، لا تقلقي.. سأتبعك من بعيد وسأتدخل إن حدث شيء.

كنت سأعترض مجددًا لكنه قاطعني قائلاً:

_سألحق بك حتى لو لم توافقي.

استسلمت لرغبته وخرجت إلى الشارع الرئيسي ولحق بي أرسلان أخذت سيارة أجرة ورأيته من المرآة الأمامية كان يلحق بي، حينها خاطبت نفسي"لماذا يرمي بنفسه في الخطر من أجل فتاة عرفها بالأمس؟".

كان هذا السؤال يحيرني، لكن خوفي على يزن يفوق كل شيء.

وصلت إلى مدخل الغابة أخرجت الهواء المكبوت داخلي بزفير طويل ثم دخلت الغابة التي كانت من المفترض أن تكون وجهة سياحية في فصل الشتاء للذين يحبون التخييم أو الركض ولكن منذ أن قُتل أحدهم وتم دفنه تحت إحدى الأشجار لم تعد وجهة الزوار لقد ألقي القبض على المجرم كان عجوزًا مختل العقل، قتل فتاة شابة كان مهوسًا بها.

اقشعر بدني عندما تذكرت تلك الحادثة، لكنني طردت تلك الأفكار من رأسي وواصلت السير. كانت الأشجار

المرتفعة تحجب أشعة الشمس، ولولا ساعتي التي تشير إلى العاشرة صباحًا، لظننت أن الليل قد حل الصمت المريب مطبقٌ على المكان إلا من صوت الأغصان اليابسة وهي تتكسر تحت حذائي الرياضي، شعرت بخطوات أرسلان تتبعني بحذر وكان ذلك يمنحني شعورًا بالأمان. حتى رن هاتفي الذي أصبحت نغماته موسيقى الرعب لدي، سحبت الهاتف من جيب سترتي ورأيت رقمه على الشاشة. هذا يعني أنه علم بوجودي في الغابة وأتمنى أن لا يكون قد علم بوجود أرسلان أيضًا، رفعتُ السماعة بتوتر وعبرت كلماته الباردة أذني:

_أمامك على بُعد بضعة كيلومترات، سيارة سوداء، أخوك داخلها. إذا أردت أن تأخذيه، ضعي القلادة حول عنقك تحت الشجرة التي عليها علامة اكس حمراء بجانبك.

انقطع الخط وشعرت بصدمة كبيرة، "لماذا يريد القلادة؟ هل هو ذلك اللص؟ أم أن الشخص الذي أعطاني إياها قد عاد؟ مستحيل...

توجهت نحو الشجرة بسرعة وألقيت القلادة حيث يريد الخاطف وألقيت عليها نظرة أخيرة. ثم انطلقت أركض في الطريق الغابي حتى لمحت السيارة مركونة على جانب الطريق. توجهت إليها بحذر.

كانت سيارة سوداء قديمة الطراز، اقتربت بحذر من النافذة ثم تغيرت ملامحي عندما رأيت أخي الذي كان ينظر إليّ بعيونٍ تنبض بالخوف والرجاء.

في تلك اللحظة، كان كل شيء يبدو كالحلم، كما لو أنني تائه قد وجد نهرًا جاريًا في صحراء قاحلة. ولكن، كما يرى العطشان السراب في الصحراء، كنت أنا أيضًا أرى سراب الأمل، الذي انزلق من بين أصابعي ما إن حاولتُ فتح أبواب السيارة، كانت جميعها مغلقة

بإحكام، لقد خدعني الخاطف وسقطت في فخه دون أن أدرك.

لم أسمح لليأس بأن يسيطر عليَّ وأخذت حجرًا من الأرض وضربت به زجاج النافذة، لكن الزجاج كان صلبًا ولم يتأثر كما توقعت. لكنني كررت المحاولة حتى نزفت يدي. لم أحقق سوى شقًا صغيرًا في الزجاج. ألقيت الحجر على جانب ووضعت يدي الدامية على النافذة، وفعل يزن المثل، لكن الزجاج منعني من ملامسة يديه.

بكينا سويًا وتعلقت عينانا لدقائق بدت كسنين، مررت خلالها كل تلك الأيام التي قضيناها معًا منذ أن استلمته من خاله، ثم رأيت لسانه يتحرك، لقد نطق أخيرًا شعرت به ولكن لم أسمع شيئًا فالزجاج اللعين كان عازلاً لصوت وكأن الخاطف قرأ كل الاحتمالات بدقة من

أجل تعذيبي، لم أستطع سماع أول كلمة ينطقها أخي ولكنني استطعت قراءة شفتاه وهي تقول، "يارا".

ربما من المثير للسخرية والتعجب أيضًا أنه لا يشفِي الصدمة سوى صدمة أخرى تمامًا مثل لدغة الأفعى التي لا يشفيها سوى سم تلك الأفعى.

انحنيت لألتقط حجرًا آخر وأحاول من جديد لكن شعرت بأيدي تحوط خصري وتحملني بعيدًا. صرخت بأعلى صوت وأنا أرى السيارة تبتعد عن ناظري مثل اليوم الذي خطف فيه. حاولت التملص من الشخص الذي يحملني وركلته بقدمي على بطنه ثم سقطنا معًا على الأرض. التقطت حجرًا لضربه، فتفاجأت بأنه أرسلان وقبل أن أعي ما يحصل، إهتزت الأرض من تحتنا وغادرت الطيور النائمة الأشجار بالسخط.

لقد دوى صوت انفجار عظيم، التفت لأجد السيارة تحترق وألسنة اللهب تتصاعد في الجو. سقطت

الحجارة من يدي وتدحرجت في الأرض المليئة بالأغصان والأوراق اليابسة. عم الهدوء والصمت فلا يسمع سوى صوت النار وهي تلتهم السيارة وأخي.

ثم أطلقت صرخة مزقت أحشاء الصمت وأسرعت إلى السيارة لكن أرسلان منعني من التقدم وأمسك بي وبقيت أتخبط بين يديه حتى خارت قواي وسقطت أرضًا، ولم أشعر بعدها بشيء سوى الظلام. ظننت أنني فقدت الوعي، ولكن كان هناك شيء أسود غطى وجهي ومنعني التنفس ثم تحررت منه ولكن الدوار أصابني وأصبحت الرؤية غير واضحة لكنني رأيته كان يقف أمامي على وجهه ابتسامة لا يمكن أن تعود لشخص عاقل،يمسك بيده القلادة والظرف الأسود، لقد كان هو أرسلان خاطف أخي يقف أمامي وبجانبه شخصان أخران مقيدان ومعصوبي العينين أحدهما كان يرتدي قبعة رياضية سوداء.

بدأ تأثير تلك المادة التي أجبرت على شمها يؤثر في جسدي وأغمضت عينايا لكابوس بطعم الصدمة والفجيعة.

الفصل الثاني

يجلس قبالتي، حليق الرأس، تغطي رقبته أوشمًا غريبة. وجهه شديد البياض كنت قد زينته ببعض الكدمات والجروح، أما عيناه العسليتان فكانتا باردتان كصقيع موسكو، جفت منهما كل ينابيع الحياة، ينظر إليّ ولا يرمش إلا قليلاً، كأنه جبل من الجليد، لو كان هنالك جائزة في البرود، لما استحقها غيره، ضربت الطاولة أمامي حتى ارتعش المصباح المعلق في السقف، ولكن لم يتحرك له جفن، فصرخت حتى كادت عروق رقبتي تنفجر:

_كيف قتلتها؟ أجبني!.

لكن لا حياة لمن تنادي، ألقيت نظرة على ساعة يدي لقد أصبحت العاشرة صباحاً. ولم أنم الليل كله وأنا أحاول إخراج الكلمات من جوفه، علّه يعترف بقتل حبيبته وأتخلص من هذه القضية التي أصابت رأسي بالصداع للحظة، كنت سأستسلم، ولكن حدث ما أعاد لي ثقتي. فقد دخل مساعدي، وزف في أذني ذلك الخبر، ثم غادر غرفة التحقيق.

بدأت أدور حوله، أضع يدي في جيب بنطالي وأدندن لحناً نسيت كلماته، حينها شعرت باضطرابه، فإذا أردت أن تجعل خصمك يضطرب، عليك أن تحافظ على هدوئك وبرودة أعصابك. انقلبت الآية، وأصبحت أنا البارد وهو المتوتر، إنها بمثابة أن تقضي على خصمك في لعبة الشطرنج بضربة واحدة وأخيرة بعد أن ظننت أنك الخاسر، كنوع من "الريمونت آدا" الكروية، فن الهجوم المعاكس وقلب الطاولة حتى تصبح الأمور

لصالحك. اقتربت من أذنه المجروحة، كأن فأر قرضها وهمست قائلاً: "لكل إنسان نقطة ضعف، أليس كذلك؟"

رغم أنه حاول إخفاء ارتباكه، إلا أنني شعرت به، فقد كان يفرك يداه وعيناه تتجولان هنا وهناك، لقد أصبت الهدف، همست مجددًا:

_ابنتك تعيش وحدها في ذلك الحي القذر الآن، لقد وصلتنا أخبار أن المرأة التي جعلتها تهتم بها مقابل المال قد هربت، وتركتها، فتاة في عمر العشر سنوات في أكثر الأحياء خطورة في نورفيل، ماذا تتخيل أن يحدث لها؟.

في تلك اللحظة انهار جبل الجليد، لقد أذابه شعور الأبوة الدافئ، في النهاية دائما هنالك نقطة ضعف يكفي إسقاطها فينهار كل شيء، الأقوياء هم أولئك اللذين لا يملكون نقطة ضعف، وهم أنفسهم الذين لا يملكون أحبة، وافق القاتل على الاعتراف أخيرًا وكدت أصفق

غير أن هيبتي كمحقق لا تسمح بذلك، لكنه اشترط أن نعيد ابنته، ولم يكن يعلم أنها معنا منذ أن جاء مساعدي، فأخلاقنا لا تسمح لنا بترك فتاة في سنها في ذلك المكان الخطر، ولكن كان ذلك نوع من الضغط النفسي حتى يعترف، وقبل أن ينطق دخل في حالة من الشرود وكأنه يمرر الأحداث أمام عينيه بحزن ثم قال :

_لقد خانتني مع صديق لي، فعماني الغضب وقتلتها.

سألته:

_كيف ذلك؟.

رد ببرود:

_ دعستها عمداً بالسيارة حتى يظن الناس أنه حادث عادي.

أظفت:

_هل كنت تحبها؟.

_كثيراً.

_وهل يقتل الإنسان من يحب؟.

_نعم، بقدر حبه تزداد رغبته في قتله إذا خانه فالخيانة صعبة.

_صحيح، ولكن هذا لا يشرع لك قتلها.

رد بهدوء:

_كانت لحظة غضب. ألم تغضب وتفعل شيئاً سخيفاً يوماً ما؟.

صمت للحظات، كلامه جعلني أسترجع ذكريات لا أريد تذكرها. فتحت باب الغرفة وأشرت إلى مساعدي الذي أخذ القاتل. وقبل أن يغادر، نظرت إليه، رغم كل شيء كانت عيناه تحملان شيئاً من الندم. قلت بجدية:

_اعترافك سيخفف من عقابك، إذا لم تثر المتاعب في السجن، قد تحظى بعفو وتخرج لتعيش حياة جديدة مع ابنتك، بالمناسبة، يمكن لك أن تراها. إنها ضيفتنا،

وسنأخذها لدور رعاية الأطفال حتى موعد خروجك.

لم ينبس ببنت شفة وغادر، لطالما شعرت بالأسف تجاه بعض المجرمين، لأن بعضهم كان ضحية للمجتمع أو لعائلة أو للحب، كانوا ضحايا في رواية أخرى، أما المجرمون الحقيقيون فهم يتجولون خارجاً بأيدي نظيفة من الدم لكنها متسخة بالآثام.

رن هاتفي ورفعت السماعة مبتسمًا عندما رأيت اسم المتصل على الشاشة.

_مرحباً بأجمل امرأة في الكون.

رد صوت أنثوي ضاحك:

_هذا يعني أن محققنا المشهور سليم قد حل قضيته.

أجبت بفخر:

_تخمينك صحيح.

تابعت بنبرة مليئة بالحب:

_وهذا يعني أيضاً أنك ستعوضني عن الأيام التي أهملتني فيها بسبب هذه القضية.

قلت لها بحنان:

_طبعاً، يا زوجتي العزيزة. سأتي لأخذك للتسوق في المول. جهزي نفسك، سأمر عليك بعد نصف ساعة.

سمعت صرخة فرح قبل أن أغلق الهاتف، ضحكت لتصرفاتها الطفولية، أنا أكره التسوق، ومن الرجل الذي يحب أن يحمل الأكياس ويتجول مع امرأة تمر من المحل خمس أو أربع مرات ثم تأخذ قطعة أو قطعتين؟ تلك عقلية النساء الغريبة، لا أعرف حقاً كيف يفكرن

عقلهن مبرمج على تعدد الخيارات والبحث فيها كلها عكس عقل الرجال الذي يركز على هدف واحد، ولكن إن كانت النتيجة رؤيتها سعيدة فالأمر يستحق القليل من الصبر.

وصلت بعد نصف ساعة بسبب تعطل حركة المرور دخلت سيارتي البوابة الحديدية الكبيرة وتوقفت أمام باب الفيلا.

كانت زوجتي تنتظرني عند الدرج الحلزوني، ترتدي فستاناً أزرق أنيقاً وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.
اقتربت منها وأمسكت بيدها، قبلتها على جبينها وقلت:

_هل أنت جاهزة؟.

ردت بنعومة:

_بالطبع، لا أستطيع الانتظار للذهاب للتسوق معك.

عندما وصلنا إلى المول الكبير في وسط المدينة، كانت الأضواء البراقة تزين المكان، والمحلات تعرض أحدث صيحات الموضة. مشينا بين الممرات، وأنا أحمل الأكياس بينما هي تتجول من محل لآخر، تختار بعناية ما يعجبها. كانت الأجواء مفعمة بالحيوية، أصوات الناس تتداخل مع الموسيقى الهادئة التي تنبعث من مكبرات الصوت.

كنت أتعجب من سعادتها التي لا توصف وهي تتنقل بين المحلات مثل الفراشة، تلمع عيناها ببريق ساحر كلما رأت ثوبًا أو حذاءً أعجبها. ورغم أنني أكره التسوق لكنني كنت سعيدًا لسعادتها، خاصة وأنها لم تكن لديها حرية التنقل كغيرها من النساء بسبب طبيعة عملي وخوفي الشديد عليه ولأنها تحبني وافقت على العيش في سجن طالما أنني سجانها كما تقول لي دائما، انتشلني من لج أفكاري صوتها وهي تستأذن

مني لذهاب للحمام، وبقيت أراقبها من بعيد وهي تختفي بين سيل جارف من الناس، فشعرت بقلق عظيم يضغط على صدري، جلست في مقهى صغير مخصص للانتظار وكان جميع الجالسين رجال ينتظرون زوجاتهم، بناتهم وأمهاتهم، طلبت كأسًا من الماء وبقيت عينايا تحدقان جهة الحمامات، أنتظر عودة ليلى، وفجأة لمحت رجلاً غريب أثار فيَّ توجسًا، كان يرتدي قميصًا وبنطالاً أسود، وقبعة رياضية من نفس اللون تخفي ملامحه، يمسك بيد طفلة صغيرة، أرجح أنها لم تتجاوز العاشرة من عمرها، شككت أن يكون خاطفها لكن الفرح الذي كان باديًا على الصغيرة أبعد تلك الشكوك، ثم اختفى الرجل والطفلة وعدت أفكر في ليلى التي لم تظهر حتى الآن، بدأ القلق يساورني من جديد، ونهضت مسرعًا نحو الحمام، وطلبت من احدى السيدات أن تنادي على ليلى بعد أن وصفتها لها

وتخبرها أن زوجها ينتظرها في الخارج، مرت دقائق ولم تخرج السيدة وزاد هلعي وفكرت أن أسحب مسدسي واقتحم المكان وقبل أن أنفذ خاطري، شعرت بيد توضع على كتفي، التفت بحذر وتفاجأت بأنها زوجتي ليلى سألتني وقد بدا على ملامحها القلق:

_ عزيزي ما بك، لماذا وجهك مصفر هكذا؟.

أنكرت الأمر قائلاً:

_ لا شيء، أين كنتِ؟ ألم تذهبِ إلى الحمام؟.

أشاحت بوجهها بعيدًا وتجنبت النظر إلي عينايا فتأكدت أنها تخفي أمرًا ما عني، صمت للحظات ثم استدركت بلهجة مظطربة:

_لقد غادرت الحمام منذ دقائق، في الحقيقة أعجبني ثوب فذهبت لرؤيته قبل أن يشتريه شخص أخر.

ثم سحبتني من يدي إلى محل أخر دون أن تترك لي المجال للحديث.

وفي المساء، ذهبنا إلى إحدى المطاعم لتناول العشاء وكانت هذه فكرة ليلى، أما أنا فأحب قضاء الأوقات الجميلة في المنزل، لكن إصرارها غير المألوف جعلني أستسلم لرغبتها.

كان المطعم ذو تأثير ساحر، مطل على البحر، تتوزع فيه طاولات خشبية مزينة بالزهور والشموع. في الزاوية، كانت هناك عازفة بيانو شقراء، تتراقص أناملها ببراعة على مفاتيح البيانو الأسود الكبير معزفة مقطوع موسيقية ساحرة تضفي على المكان جوًا رومانسيًا خلابًا.

جلست مع زوجتي في الشرفة، حيث بإمكاننا رؤية البحر وهو يعانق انعكاس القمر، كنت مشغولاً بتأمل وجهها الملائكي، كانت عيناها تتلألآن تحت ضوء

الشمعة التي بدأت بالاحتضار، كانت الشمعة تحترق من أجلنا، لتضحي بنفسها وتنيرنا وتضفي جواً رومنسيًا على المكان. مثل الكثير من البشر الذين يحترقون ليضيئوا ظلام الآخرين.

بعد العشاء، دعوتها إلى رقصة. ابتسمت بخجل. أمسكت يدها وقدتها إلى وسط القاعة حيث كان الجميع يرقصون في ثنائيات. أحطتها برفق، مثل فراشة أخشى أن تتحطم بين يدي، وبدأنا بالرقص بحركات منسجمة اختفى الجميع من حولنا وبقينا فقط نحن الاثنان نرقص على شرف الحب.

مرت الساعات ونحن نتسامر ونضحك، حتى غادرت ليلى إلى الحمام. بقيت أتصفح هاتفي، ووجدت خبراً عن رجل أعمال وجدوه مقتولاً في شقته. انقبض صدري قليلاً، وكأنني أخشى أن تُسرق مني هذه اللحظات السعيدة. الإنسان يركض دائماً خلف هذه

اللحظات، وعندما يمسك بها يبدأ الخوف من وقوع شيء سيء يبدد تلك اللحظات السعيدة.

أغلقت الهاتف اللعين، ثم نظرت حولي. لم يعد هناك أحد في المطعم، حتى النادل الذي كان ينظف الطاولات لم يكن موجوداً. شعرت ببعض القلق، لكنني أنكرت الأمر، وراحت عينايا تستمتع بالبحر حتى تعود ليلى ونعود للمنزل.

فجأة، شعرت بشيء ما ينزل على رأسي، بحركة لا إرادية، أخرجت مسدسي وصوبت نحو الشيء الذي حددت ماهيته عندما رفعت رأسي كان بالوناً أزرق. فجرته فتساقطت منه أشياء لم أستطع رؤيتها بوضوح في الظلمة حتى استقرت على الأرض عندما سمح النور في الداخل برؤيتها، وضعت المسدس على الطاولة بجانبي وانحنيت لألتقطها كانت صوراً ما إن لمحتها حتى دمعت عينايا شعرت بشعور غريب لم

أشعر به من قبل، وكأن الحياة تقدم لي هدية أخرى كنت أنتظرها لسنوات بكيت تلك الليلة كما لم أبكِ من قبل، وأنا أمسك صورة جنين، صورة ابني.

ظهرت زوجتي وفي يدها جوارب صغيرة جداً وضعتها في يدي وقالت بحنان:

_ستصبح أباً، أيها المحقق ستصبح أفضل أب في هذه الحياة.

أب؟ لم أكن أعرف شعور أن يصبح المرء أبًا أو كيف يتصرف الآباء مع أبنائهم، فأنا يتيم، مات والداي منذ كنت طفلاً في حادث احتراق منزلنا وحرمت منذ ذلك الوقت عطف الوالدين.

سارعت بسؤالها:

_هل سأصبح أبًا جيدًا؟.

مدت يدها ومسحت دمعة خائنة نزلت من عيني وأردفت مبتسمة:

_طبعًا، ستكون أفضل أب في هذه الحياة.

عانقتها بقوة ولم أستطع منع دموعي أكثر، وذرفنا سوياً تلك الليلة، دموع الفرح، ونحن نتخيل شكل صغيرنا القادم واسمه وزينة غرفته، كان شعورًا جميلاً لا يمكن وصفه.

داعبت أنامل الشمس المتسللة من النافذة أجفاني واستيقظت من حلم جميل، مددت يدي إلى جانبي وتحسست الفراش، ولكن ليلى لم تكن موجودة. نهضت من السرير ووقفت أمام الواجهة الزجاجية المطلة على الغابة، أتأمل الطبيعة وهي تستقبل بداية يوم خريفي جميل.

بعد أن غيرت ثيابي، غادرت الغرفة وأنا أدندن ألحان أغنية نسيت كلماتها، دخلت المطبخ قائلاً:

_صباح الخير عزيزتي.

لكنني تفاجأت بأن المطبخ كان فارغًا، وقد فاضت القهوة على الموقد. أسرعت لإطفائها، ثم اتجهت إلى غرفة المعيشة، ولكنها لم تكن هناك أيضًا، بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي عندما لم أجدها في الحديقة أيضًا.

نظرت حولي بقلق، إلى أن رأيت ظرفًا أسودًا د مثبتًا تحت مساحات سيارتي. اقتربت منه بحذر، وأخذته بيد مرتعشة كان عليه ختم فراشة بلون دموي، تنفست بعمق، ثم فتحته ومررت عيني على تلك الأحرف التي كانت عنوانًا لمكان قريب من هنا. فتح باب السيارة وشغلتها، ثم انطلقت بسرعة.

بين أنقاض الشاحنات المحطمة خرجت من سيارتي مشددًا قبضتي على سلاحي. تقدمت بخطى حذرة وأنا أستطلع المكان المهجور من حولي. وعندما وصلت إلى مفترق طرق، سمعت صراخ ليلى ينبعث من الطريق أمامي. اندفعت إلى مصدر الصوت، لكنني توقفت فجأة لما سمعت صوتها مجددًا من اتجاه آخر. وجدت نفسي محاصرًا بصراخ زوجتي من الجهات الأربع، أمسكت برأسي أحاول التركيز وأنا أتنفس بصعوبة.

نظرت حولي بلهفة، والتقط نظري مكبر صوت معلقًا في شجرة، صوبت نحوه، وترددت ثم فجرته، وكذلك فعلت مع مكبرات الصوت التي انتشرت في كل اتجاه. ثم سمعت الصوت الحقيقي صادرًا من الطريق خلفي هيأت قادح سلاحي وركضت نحوه. وعندما وصلت وجدتها تقف وحيدة على بعد أمتار مني، مقيدة اليدين ومكمومة الفم. كانت دموعها تلمع تحت أشعة الشمس

ترتدي فستانًا أبيضًا يعبث النسيم بأطرافه، بجانبها مكبر صوت يصدر منه صراخها.

ما إن رأتني حتى بدأت ترسل إليّ إشارات برأسها كأنها تريد تحذيري. لكنني لم أكن في حالة تسمح لي بفك شفرات إشاراتها، كنت أريد فقط إنقاذها وأخذها من هنا بسرعة، اقتربت نحوها ببطء، وهي تتابع خطواتي بخوف. فجأة شعرت بأنني دعست على فخ على الأرض وقبل أن أستوعب ما يحصل، ارتفعت ليلى إلى الأعلى والحبل يعتصر رقبتها، أسرعت نحوها وأمسكت بقدميها وأنا أرفعها لإرخاء ضغط الحبل على رقبتها، لكنها كانت ترتفع أكثر وأكثر حينها أردفت ليلى بصعوبة:

_أنا أحبك.

ورددت بصوت مثقل باليأس:

_وأنا أحبك أيضًا. تحملي، سأنقذك.

لكن في لحظة خاطفة ارتفعت لأعلى ولفظت أنفاسها الأخيرة. ارتخى الحبل وسقطت بين يدي، نظرت إليها والصدمة تحتل أدق تفاصيل وجهي. أطلقت صرخة جمعت حزن العالم كله واحتضنت زوجتي وأنا أجهش ببكاء مرير، لقد ذهبت من كنت أختزل الحياة كلها في عينيها، تركتني وحيدًا خلفها يمزقني الألم وتنهش روحي الوحدة.

وفجأة تلقيت ضربةً قوية على رأسي من الخلف وابتلعني من الظلام.

الفصل الثالث

كنت أدخن سيجارة في ذلك الزقاق المظلم قبل أن أدهس بحذائي ما تبقى منها، كانت تلك المهمة كأي مهمة أخرى،التخلص من رجل أعمال متورط في تجارة المخدرات وعدو للعصابة التي أعمل معها، أيًا كان الأمر، سأنفذ عملي كالمعتاد، أنا قاتل مأجور منذ أكثر من أربع سنوات، لك أن تتخيل كم روح أزهقتها خلال هذا الوقت، لكن الحياة لم تمنحني فرصة أن أكون طبيبًا أو محاميًا أو حتى بائع خضرة في السوق، الحياة ليست عادلة أبدًا، لقد جعلتني شريك عزرائيل، أتولى القتل وهو يقبض الأرواح، لا أنكر أني شخص غادرت

الرحمة من قلبه منذ زمن، ولكني لا أقتل الأبرياء والضعفاء، لحسن الحظ أن أعداء العصابة قذرين مثلها. عندما دخلت ذلك المبنى المتهاوي في أطراف المدينة. كان الجو مثقلاً برائحة الرطوبة، والظلام يلف المكان صعدت الدرج بحذر، محفوفا بالصمت القاتل لم تكن هناك أصوات سوى أنفاسي، وضربات قلبي المنتظمة، كانت هذه مهنتي، أن أكون في المكان الصحيح في اللحظة المناسبة، وأقضي على الهدف قبل أن يدرك حتى أنني هنا.

اقتربت من الشقة بحذر وأخرجت، قطعة حديدية صغيرة فتحت بها الباب ودلفت إلى الداخل، كانت الشقة غارقة في الظلام ولكن وجود الجسد كان واضحًا على الأريكة بسبب نور القمر المتسلسل من النافذة، اقتربت منه ببطء ولكنه لم يتحرك، جزمت بأنه نائم فقررت أن أقتله وأرحل دون النظر إليه، ثبت كاتم الصوت في

مسدسي وكدت أضغط على الزناد لكنني تراجعت عن ذلك عندما سمعت شيئًا لم يكن في الحسبان. صوت بكاء صغير.. تجاهلت الأمر في البداية، لكن شيء ما جعلني أتقدم نحو ذلك الباب الذي ينبعث منه الصوت فتحته ببطء فأحدث صريرا مزعجًا ووجدتها هناك، فتاة صغيرة، لم تتجاوز العاشرة من عمرها. ترتدي ثوبًا ورديًا، شعرها الأسود ينساب على كتفيها وعيناها كانتا متسعتين تفيضان خوفًا، كانت مقيدة، ومكممه، لم تكن جزءًا من خطتي، لم تكن جزءًا من أي شيء.

للحظة، ترددت كان يجب أن أقتل كل من في المكان. هذه هي القاعدة لكن تلك العيون الواسعة المملوءة بالخوف، تلك البراءة التي لم أرها منذ زمن بعيد... أثنتني عن فعل ذلك انحنيت بجانبها، فككت القيود وخلعت الكمامة عن فمها، ظلت تحدق إليّ بصمت وخوفها كان طاغيًا.

"هل أنتِ بخير؟" سألتها بصوت خافت، لكنها لم تجب بل اكتفت بهز رأسها وتحريك يديها، علمت حينها أنها لا تستطيع الكلام من الخوف.

طلبت منها البقاء هنا باشارة من يدي ثم عدت لأكمل مهمتي وقد أصبح لدي دافع قوي لقتل ذلك الخاطف القذر، وهذه المرة سأنظر في وجهه.

أشعلت أضواء الشقة واتسعت عينيَا صدمة مما رأيته لقد كان الرجل مقتولاً وغارقًا في دمه، لا بد أن لديه أعداء كُثر، أطفئت الأنوار من جديد كي لا ترى الصغيرة ذلك المنظر المرعب، وعدت إليها، حملتها بين يدي وأخرجته من الشقة، لم أكن أعلم السبب الذي جعلني أخذها معي ربما لأنني رأيت نفسي فيها.
طفولتي الممزقة، الخوف الذي عشته، كانت تلك الفتاة كمرآة لعالم نسيت أنني عشته يومًا.

عندما أصحبنا في الخارج، أجلست الصغيرة بجانبي في السيارة، وجلست أنا خلف المقود وانطلقت بسرعة نحو شقتي وقد بدأت الظلمة بالانحسار تدرجيًا، وطوال الطريق توشحت الطفلة الصمت وهي تراقب الطريق بهدوء، وانقشع الخوف من أعينها دون حتى أن تعرف من أكون. توقفت عجلات السيارة أمام تلك البناية المتهالكة في "حي الطوب" عندما أشرقت الشمس أمسكت الطفلة من يدها وصعدنا السلالم المهترئة إلى الطابق الثالث حيث شقتي، وفي الطريق لمحت فتاة ذات شعر كستنائي تتفقد حقيبتها أمام باب شقتها ينتظرها طفل بعمر الصغيرة التي معي، تتسع عيناه الزرقاوان وهي تتطلع إلينا بفضول، مررت من جانبهم بهدوء، فلم أكن أحب الحديث مع الجيران، فتحت شقتي ودخلنا سويًا إلى الداخل، ارتميت على الأريكة الرمادية في غرفة المعيشة بعد أن أخفيت مسدسي، فيما ظلت

الصغيرة تتجول في الشقة بإعجاب ظاهر فرغم أن البناية قديمة ومتهالكة لكنني اشتريت أثاثاً فخم، جعل منها قصرًا في حضيرة، وبعد جولتها قررت الصغيرة الجلوس أخيرًا قبالتي.

استغرق الصمت بيننا دقائق معدودة ثم كسرته الطفلة بقولها:

_ما اسمك؟

أربكني السؤال وفي الوقت ذاته لم أستطع منع ابتسامة من أن ترتسم على وجهي بعد أن تكلمت، فسيكون من الصعب التواصل معها وهي بكماء وصغيرة، صمت للحظات وكأنني أحاول تذكر اسمي الحقيقي، فقد اعتدت تغيير اسمي كل شهر، وبعد أن عثرت عليه، قلت بهدوء:

_يحيى

_اسم جميل، وأنا رغد.

أردفت مبتسمة وهي تمد يدها الصغيرة للمصافحة ترددت قليلاً قبل أن أصافح يدها، فأحسست بشعور غريب يجتاحني، ثم سألتها السؤال الأهم بنبرة جادة:

_من خطفك؟ وكيف وصلت إلى تلك الشقة؟.

توترت قليلاً، وعاد الخوف إلى عينيها، ثم قالت بصوت مرتعش:

_ كنت أعيش في الميتم حتى جاء ذلك الرجل وتبناني ثم علمت أنه يخطف الأطفال ويأخذهم للمستشفى، وقبل ذلك يحبسهم في مخزن مهجور، وعندما جاء دوري لذهاب للمستشفى في تلك الليلة؛ بدأت بتتبعه سيارة فعاد إلى شقته ولم نذهب فحبسني في الغرفة لنذهب في الصباح ولكن...

صمت لبرهة واستطعت رؤية الخوف يكبر في عيونها كهالة من الظلام، ثم واصلت قائلة:

_ سمعته يطلب العفو بصوت خافت ثم انقطع صوته تمامًا، وبعد دقائق بدأت أسمع وقع أقدام تقترب من الغرفة ببطء وانفتح الباب، كان يضع قناعًا أسودًا، لم أرى وجهه، لكني رأيت رسم فراشة حمراء في يده. ظل واقفًا للحظات وبعدها رحل.

فهمت من كلام رغد أن رجل الأعمال ذاك كان تاجر أعضاء ولكن الأمر المريب هو صاحب وشم الفراشة لماذا كان هناك ولماذا ترك الصغيرة ورحل. أيقظني من شرودي صوتها وهي تصرخ، لم أشعر حتى بذهابها من أمامي، ركضت إلى المطبخ، وجدتها هناك تشير بإصبعها إلى زاوية في المطبخ، استدرت بحذر وكانت المفاجأة، مجرد صرصور حقير أحدث كل هذه الجلبة.

دعسته بقدمي وأثار ذلك امتعاضها، ثم نظرت إليها وأردفت بنبرة حادة لا أعرف كيف خرجت:

_ إياك أن تظهرِ خوفكِ مجددًا، لو أظهرتِ خوفك من صرصور حقير سيظن نفسه ديناصورا، وكذلك البشر.

لا أعلم إن كانت فهمت ما قلته، لكنها نظرت إلي بثقة وأومأت رأسها إيجابًا، وبما أنني في المطبخ تذكرت أن عليّ إطعامها، لم يكن لدي شيء مما يحبه الأطفال في الثلاجة، فاكتفيت بقلي بيضات لها وأكلتها بشراهة تشي بأنها لم تأكل شيئا منذ أيام.

ثم أخذتها إلى غرفة الضيوف، والتي لم يدخلها ضيف من قبل، فقد اعتدت العيش لوحدي ولم يدخل أحد هذه الشقة غيرها، أعطيتها غطاء نظيفًا ثم تركتها تنام بسلام ودلفت إلى غرفتي، أشعلت سيجارة انساب منها خيط من الدخان، وأنا أفكر في رغد، ما الذي أفعله معها وكيف أستطيع حمايتها، لا يمكن أن تكون في

أمان مع قاتل مأجور مثلي إنه بمثابة أن تأمن بالونة بين يدي صبارة، كان عليّ إيجاد حل قبل أن تكتشف العصابة أمرها.

استيقظت على صوت المنبه، ذلك الرنين المزعج الذي يبدو وكأنه يُصر على إعادتي إلى العالم الذي أحاول الهروب منه كل ليلة، فتحت عيني ببطء، وأخذت لحظة لأتذكر أين أنا، الغرفة هادئة، الهواء بارد قليلًا السرير الذي أستلقي عليه ولكنه مألوف، تمامًا مثل حياتي.
نهضت، وتحركت ببطء نحو الحمام قضيت حاجتي، ثم غسلت وجهي ووقفت أتأمل انعكاس ملامحي على المرآة، لم أكن أرى سوى وجه بارد، ذو قسمات حادة، وبشرة بيضاء شاحبة، وعيون سوداء كانت قبل ثلاثة أيام خاوية من أي شعور، أم الآن فقد تسلل إليها بريق خافت، يجاهد نفسه للاشتعال، عدلت تصفيفة شعري الأسود الطويل قليلاً، واتجهت للمطبخ، في هذا الصباح

كان هناك شيء مختلف وهذا الشيء هو رغد التي تقضي يومها الثالث معي، لم أختر أن أكون مسؤولًا عنها، لكنها أصبحت جزءًا من روتيني، كالقهوة التي أعدها كل صباح، وبينما أعد قهوتي، توقفت لبرهة لأسمع خطواتها الخفيفة وهي تقترب.

"صباح الخير"

كان صوتها ناعسًا، مثقلاً بالنوم، التفت فوجدتها واقفة عند الباب، شعرها مبعثر وعيناها نصف مفتوحتان.
ابتسمت لها، شيء لا أفعله عادة، لكن معها، كان الأمر مختلف.

"صباح الخير"

أجبت بهدوء ثم وضعت لها طبق الشوفان، وأضفت عليه العسل كما تحب.

جلسنا نأكل بهدوء. كانت تتحدث عن مشرفة الميتم والأطفال والحلوى التي تجُلب لهم نهاية الأسبوع وعن صناديق الهدايا التي يرسلها رجال ونساء المجتمع الأغنياء، كنت أستمع بنصف تركيز لهذه الأحاديث المتكررة منذ ثلاثة أيام، وقد كان ذهني في مكان آخر. أفكر في آخر مهمة قمت بها، تلك الدقائق التي شعرت فيها بنبض الحياة يتلاشى بين يدي، عندما كادت رصاصة أن تخترق جمجمتي من قِبل قناص لم أنتبه لوجوده.

قد يباغتني الموت في أي لحظة وتظل المسكينة وحدها

خطرت في ذهني فكرة، وهي أن أعيدها لذلك الميتم التي ما تفتأ تتحدث عنه في النهاية هو أكثر آمنا من وجودها معي ولكن قبل هذا، سنقضي معا يومًا جميلاً.

كان أول مكان ذهبنا إليه المول الكبير الموجود وسط المدينة لاقتناء ملابس جديدة لها، فقد كان ثوبها مهترئا وباهتًا.

كانت يدي ممسكة بيدها الصغيرة، أصابعها تتشبث بي كما لو أنني طوق الأمان الوحيد لديها، كان المول مكتظا بالحشود، أشعر فيه وكأنني تائه وسط خلية من النمل تمشي دون توقف، تتوزع المحلات في كل شبر منه، على اختلاف بضائعها.

"أريد فستانًا ورديًا!".

أردفت رغد وهي تشير إلى فستان وردي معروض في واجهة محل، كانت تقفز من السعادة، وعيناها تلمعان بحماس، لقد كانت تضحكني هذه الأشياء الصغيرة التي تجعلها سعيدة. اشتريت له الثوب الذي أعجبها فزادت فرحتها، ثم واصلنا مشينا بين المحلات، وهي تتفحص كل شيء بعيون طفل يكتشف العالم لأول مرة وكنت أنا

أرى العالم من خلال عيونها، عيون طفلة صغيرة لم تكتشف قسوة العالم بعد، وبينما كانت تختار الملابس كنت أفكر في مدى اختلاف هذا المكان عن ما أعيشه، لا دماء، لا رصاص ولا خوف.

انتهينا من التسوق وأخذتها إلى مطعم مخصص للعائلات في المول، طلبت لها شطيرة، بينما انشغلت أنا بالنظر إلى الناس من حولي وكيف يعيشون، أثار انتباهي رجل يرتدي سترة جلدية سوداء وسروالاً من نفس اللون، وشعره ممشط للخلف، كان يقف أمام حمام النساء وقد بدا عليه التوتر، ظللت أراقبه حتى جاءت من خلفه إمرأة بثوب أزرق سماوي طويل وشعر أصفر منساب على كتفيها، تحدثا قليلاً ثم سحبته المرأة من يده واختفى الاثنان بين الحشود.

بعد التسوق، توجهنا إلى مدينة الملاهي، كان الجو هناك مليئًا بالضحك والصراخ، ضجيج الألعاب وصوت

الأطفال وهم يركضون في كل اتجاه كان المكان يشبه لوحة فنية من السعادة، وكانت رغد متحمسة جدًا عيونها تلمع وهي تشير إلى كل لعبة تراها.

ركبنا القطار السريع أولًا، كنت أجلس بجانبها، أشاهد تعابير وجهها وهي تصرخ من الإثارة شعرت حينها بشعور لم أستطع تحديد ماهيته، يشبه إلى حد ما شعور الحرية.

"هل كنت تخاف عندما كنت صغيرًا؟."

سألتني وهي تخرج من القطار. ضحكت بمرارة، كيف أشرح لها أن خوفي كان مختلفًا؟ أنني لم أكن أخاف من الألعاب، بل من الأشخاص الذين ظهروا في طفولتي واغتالوها، اكتفيت بهز رأسي إيجابًا.

ثم ركضت نحو لعبة أخرى، وأنا أتابعها. كل حركة، كل نظرة، كنت أراقبها كما أراقب هدفًا في مهمة، الفرق الوحيد هنا أنني كنت أراقبها لحمايتها، لا لاصطيادها.

ثم سمعت صراخ الأطفال وهم يلتفون حول مهرج لم أشعر بالاطمئنان نحوه، دفعني شعوري الدائم بالحذر لأخذ رغد والعودة للمنزل، بعد أن اشتريت لها المثلجات وغزل البنات، وفي طريقي إلى السيارة وجدت فتاة تجلس في الشارع وتبكي، لم أستطع رؤية وجهها المختفي تحت خصلات شعرها، لكنني سمعت صوت بكائها، حاولت تجاهل الأمر والمضي نحو السيارة لكن الصغيرة جذبت يدي وقالت برجاء:

_ لماذا لا نلقي عليها نظرة، ربما تكون في ورطة؟.

لم أستطع رفض طلبها، وتقدمنا نحو الفتاة وقبل أن نصل إليها، سبقنا شاب بدراجته النارية، أخذها وذهب

بينما عدنا نحن إلى الشقة.

وعندما وصلنا نزلت من السيارة ركضًا وهي تحمل أكياس الملابس الجديدة، صعدت السلالم بعجلة، لتقيس تلك الثياب. وإنتهى اليوم الجميل، الذي كان بمثابة لون زاهي في لوحة سوداء، دخلت إلى غرفتها، ووجدتها تغط في نوم عميق وهي ترتدي الفستان الوردي الذي أعجبها منذ دخلت المول، وفي يديها لعبة الأرنب الأبيض، كانت جائزة في لعبة القناص في مدينة الملاهي، وبالطبع كانت لعبة سهلة لقاتل محترف مثلي وضعت ثيابها وألعابها في حقيبة صغيرة اشتريتها دون علمها، لتستطيع أخذهم معها إلى الميتم غدًا صباحًا، ثم ألقيت نظرة أخيرة عليها وغادرت الغرفة.

كانت ليلةً طويلةً عليّ وكأن لا نهاية لها، أحرقت فيها ثلاث علب سجائر، إلى أن خلدت لنوم.

وعندما استيقظت في اليوم التالي، كان الصداع يجتاح رأسي، توجهت كالعادة إلى الحمام ثم إلى المطبخ لإعداد الفطور لرغد والقهوة لي، مرت ساعة منذ نهوضي وبرد الحليب لكن رغد لم تستيقظ، شعرت بالقلق، وتوجهت لغرفتها، فتحت الباب وتفاجأت بالغرفة فارغة، لم تكن رغد موجودة، تسلل الخوف داخلي لأول مرة منذ زمن، عندما رأيت ظرفًا أسود فوق سريرها، اقتربت منه بحذر وأخذته بين يدي، كان ظرفًا غريبًا يحمل ختم فراشة بلون أحمر قاني، فتحته بأيدٍ مرتعشة، كان يحمل ثلاث كلمات فقط " انظر من الشرفة " أسرعت لدرج غرفتي وسحبت مسدسي من هناك ثم خرجت إلى الشرفة، نظرت إلى الشارع وإلى البناية المقابلة، لكن كل شيء يسير وفق وتيرته المعتادة، التفت للخروج والبحث عنها لكن ذلك الصوت، جعلني أتسمر في مكاني، كان صوت ارتطام

قوي، عدت إلى الشرفة ونظرت إلى الأسفل، فرأيت ما كنت أخشاه، كانت جثة رغد ملتصقة بإسفلت الشارع غارقة في بركة دم قانية وحشد من الفضوليين حولها.

وقبل أن أعي ما يحصل شعرت بضربة قوية على رأسي وابتلعني الظلام.

الفصل الرابع

كان الظلام يلف المكان، الهواء بارد ورطب كما لو أنه جمع كل أنفاس الشتاء.

استيقظت من إغمائها وصداع حاد يشق رأسه. كانت عيناها تفتشان في العدم، لا شيء سوى السواد يحيط بها من كل مكان، تمتمت بصعوبة:

"أين أنا؟"

كانت معصوبة العينين، يداها مقيدتان خلف ظهرها بحبال خشنة، تآكل الجلد تحتها من شدة الاحتكاك. حاولت الحركة، لكن السلاسل على قدميها كانت ثقيلة أسندت ظهرها إلى الحائط البارد باستسلام وقد

اجتاحها سيل من الذكريات، مدينة الملاهي ذلك الظرف الأسود، الغابة والانفجار، لقد مات أخوها الصغير أمام عينيها ولم تستطع فعل شيء والخاطف كان يتجول معها، كيف وثقت به؟ كيف يمكن أن تثق فتاة بشاب عرفته ليوم واحد؟ لعنت غبائها وانسابت دموع مريرة تحرق وجهها بتلذذ وبينما كانت غارقة في ذكرياتها المؤلمة، سمعت صوتًا قادمًا من الزاوية الأخرى للغرفة. كان صوتًا منخفضًا، مختنقًا كما لو أنه يجاهد نفسه على الحديث.

_هل... هل هناك أحد؟.

كان الصوت لرجل. بدا متعبًا، مكسورًا.

_نعم.. أنا هنا .

همست يارا

كان حلقها جافًا، وكأنها لم تتحدث منذ أيام.

_أين نحن؟.

سأل الرجل، لكن لا أحد منهما كان يملك الإجابة، في زنزانة الثانية، كان جالسًا على الأرض، ظهره إلى الجدار، يحاول التملص من قيوده، أغمض عينيه محاولاً التركيز، وجمع شتات أفكاره، لكن ألم الفقد كان يعصر قلبه، لا يستطيع أن ينسى نظرتها الأخيرة وهي تحتضر بين يديه، لم يسمح للألم أن يسيطرعليه، فهو محقق وعليه أن يستنجد بذكائه للخروج من هذا المكان وإنقاذ الفتاة الأخرى التي تجلس خلف الجدار، كان تركيزه يصب في شيء واحد، وهو ذلك الظرف الأسود وختم الفراشة، انتفض كمن صُعق بالكهرباء، وسأل الفتاة قائلاً:

_ هل وصلك ظرف أسود من قبل؟.

جاء صوت يارا من خلف الجدار، مهزوزًا تغلفه الصدمة:

_هل وصلك أنتَ أيضًا؟.

لم يُجب سليم على سؤالها، وغرق في التفكير، لا شيء متأكد منه سوى أن الخطف متعلق بذلك الظرف ولكن ظهور الظرف دائما متعلق بجريمة، سألها مرة ثانية:

_ ماذا حصل بعد أن وصلك الظرف، هل وقعت جريمة؟.

صمتت يارا لثواني، ثم أجابت بصوت مرتعش:

_ نعم... لقد قُتل أخي الصغير.

بات المحقق سليم متأكد من أن قاتل زوجته هو نفسه قاتل أخ الفتاة وكذلك صاحب الظروف السوداء، لكن السؤال الذي لم يجد له جواب، لماذا اختاره واختار تلك الفتاة لماذا لم يتخلص منهم وعذبهم بقتل أحبتهم؟.

وبينما كان غارقًا في أفكاره، سمع صوت سلاسل تتحرك، على يساره، لقد كان هنالك شخص ثالث معهم.

في زنزانة الثالثة، كان يحاول التخلص من قيوده ورغم أنه سمع كل الحديث الذي دار بين يارا والمحقق سليم إلا أنه لم يكترث لوجودهما، فهمه الوحيد هو الخروج من الزنزانة وقتل اللعين الذي ألقى برغد من فوق البناية، كان هادئًا لا يبدو عليه التوتر فقط رغبة ملحة في الانتقام تتقد داخله كلهيب حارق، حتى لو كلف الأمر حياته، ففي النهاية لم يعد هنالك ما يخسره.

جأه صوت المحقق من خلف الجدار وهو يقول:

_ هل هنالك شخص أخر هنا؟.

صمت يحي لدقائق لم يكن يريد الردّ عليه وانشغل في محاولة الوصول إلى جيبه، لكن إلحاح سليم، جعله يجيب "نعم"

وقبل أن يترك مجالًا لسليم حتى يسأل أردف ببرود:

_ وأنا أيضًا وصلني الظرف اللعين وقُتل شخص أعرفه بعدها مباشرة.

ثم غرق الثلاثة في صمت مريب، مرت دقائق، أو ربما ساعات، لا أحد منهم يعرف كان الزمن في هذا المكان بلا معنى ولكن مع كل لحظة تمر، كانت مشاعرهم تزداد ثقلًا، رائحة العفن في الغرفة، الهواء الراكد الذي بالكاد يسمح لهم بالتنفس، والصداع المتواصل في رؤوسهم كان يزيد من الإحساس باليأس.

وبعد أن مر وقت طويل من المحاولات فاشلة في التخلص من قيودهم، استسلم الثلاثة لنوم.

حجبت السماء سحب داكنة كشباك العنكبوت، الرياح تعصف بالأغصان وحفيف أوراقها كفحيح الثعابين، في مكان بعيد عن المدينة، سار في ذلك الممر نحو باب حديدي، الهدوء مطبق على المكان ما عدا صوت وقع أقدامه وأنفاسه التي تتردد في نسق سريع خلف كمامة

سوداء، وقف أمام الزنزانات الثلاث وقام برش مادة غريبة في الجو قبل أن يدخلها.

كان أول من استيقظ يحيى وعندما فتح عينيه تشكل أمامه باب الزنزانة مفتوحًا على مصرعيه لوهلة ظن نفسه أنه يحلم، لكن كل شيء بدا وقعيًا وتفاجأ بأنه غير مُقيد، لقد اختفت تلك الأغلال فجأة، ثم سمع صوت المحقق يقول:

_ أين أنتم؟.

أجابت يارا:

_ أنا هنا؟ لقد اختفت القيود؟.

فجأة، اخترق صوت عميق أجواء الزنزانة، صوت بدا وكأنه يصدح من كل الجدران في آن واحد، تخلل الهواء كرياح مفاجئة.

" انهضوا... توجهوا إلى الغرفة في نهاية الممر."

غادر الثلاثة زنزانتهم، وقد كشف الضوء الباهت الذي تسلل من الخارج عن ممر طويل، ضيق وموحش.

تبادلوا نظرات لكن الظلام حال دون رؤيتهم لبعضهم البعض، واكتفوا بالسير في ذلك الممر بصمت، كان الممر طويلاً، مليئًا بالأبواب المغلقة، ترتجف المصابيح المعلقة في السقف مع كل خطوة، وكأنها تعكس القلق الذي يسري داخلهم، تقدموا ببطء، أصوات خطواتهم تتردد بين الجدران، يلفهم شعور غريب بأنهم يسيرون نحو شيء خطير، عندما وصلوا إلى نهاية الممر وجدوا أمامهم بابًا معدنيًا كبيرًا. فُتح ببطء أمامهم محدثًا صوت احتكاك صاخب، دخلوا إلى الغرفة المظلمة، فوجدوا أنفسهم في مكان أشبه بقاعة سينما مقاعد حمراء مصفوفة وشاشة ضخمة تغطي الحائط أمامهم، عاد الصوت من جديد وأمرهم بالجلوس.

جلس كل واحد منهم على مقعد وحيدًا في مواجهة المجهول الذي ينتظرهم في الشاشة، ثم بدأ العرض مشفوعًا بموسيقى تأثيرية مخيفة، ظهرت على الشاشة صور قديمة مشوشة قليلاً، كانت لمجموعة من الأطفال يرتدون ملابس نظيفة ويقفون في طابور منتظم أمام مبنى قديم، اتسعت عيونهم وبدأ الأمر يتضح لديهم شيئًا فشيئًا، ثم عرضت الشاشة، صورة لجزء من صحيفة قديمة ظهرت على الشاشة، تصدرتها جملة رئيسية "جريمة قتل تهز ميتم غير قانوني".

ثم رأوا صورة رجل مقتول ملقى على الأرض كانت تلك اللحظة هي التي أعادت كل شيء.

وتبادل سليم ويارا نظرات مشوبة بالصدمة، أما يحي فظلت عيناه متسمرتان في تلك الصورة، وهو يكور قبضة يده في غضب، وقد عادت به الذاكرة إلى الماضي.

سقطت آخر ورقة من شجرة عارية تنتصب على حافة الطريق، ورقصت رقصتها الأخيرة مع الرياح، معلنة أن وقت الرحيل قد حان، ثم عانقت الأرض بهدوء قبل أن تتكسر تحت أقدام رجل يحث الخطى، مسح حبات العرق التي تجمعت على جبينه، رغم رطوبة هذا الصباح الخريفي ثم رفع رأسه إلى السماء وعقد حاجبيه فقد تشكلت السحب الداكنة، وظهرت الشمس من خلفها باستحياء، عليه أن يسرع قبل أن تمطر.

جذب الصبي الذي كان معه بقوة من يده الصغيرة، وواصل طريقه وهو يتمتم بالأدعية، وعندما بدأت أول زخات المطر تتساقط، وصل الرجل أمام بوابة حديدية صدئة دفعها فأحدثت صريرًا مخيفًا نظر إلى الصبي

بوجه عابس، ثم انحنى إلى مستواه ورسم ابتسامة مزيفة على شفتيه الغليظتين، وقال:

-سيكون هذا منزلك الجديد، ستجد هنا أصدقاء كثر للعب معهم، ولن تشعر بالملل، كما أني سآتي إلى زيارتك دائماً.

سأل الطفل بحزن:

-عمي أحمد، لماذا لا أحد يريدني؟.

-ما هذا الكلام يا صغيري؟.

-لقد سمعت حديثكم، لا أحد من الجيران يريد أن أبقى عنده، حتى زوجتك رفضت، هل أنا طفل سيء؟.

قاوم العم أحمد رغبةً في البكاء ورد بصوت مبحوح.

_ أنت صبي جيد ومهذب لكننا خسرنا منازلنا وأعمالنا وسيعود أغلب أهالي الحي إلى الضيعة والحياة هناك قاسية بالكاد يعيلون أطفالهم أما أنا سأنتقل مع عائلتي

للعيش مع أحد الأقارب في وسط المدينة، لن أستطيع أخذك معي ولو أردت ذلك.

أنهى كلامه ثم خبأ عينيه تحت قبعته مخفيًا دموعه ورحل مهرولاً دون توديع الطفل وغاب في أحشاء الطريق.

أخذ الصبي نفسًا عميقًا ودخل فناء الميتم القديم، كان مبنى المرتفع إلى طابقين، تحيط به حديقة مهملة تتوسطها بركة ماء راكدة تغطيها الطحالب، خلف المبنى، بقايا مرمى كرة قدم وأرجوحة صدئة تعبث بها الرياح فتصدر صوتًا مزعجًا، وعندما اشتد المطر، تقدم الطفل وطرق الباب، الذي انفتح بعد دقائق ليكشف عن رجل طويل، ذو وجه نحيل وذقن غير مرتبة، تنبثق من عينيه الجاحظتين نظرات شريرة. ابتسم الرجل بمكر وكأنه ذئب سعيد بخروفه الجديد، أشار إليه ليتبعه فدخل الطفل خلفه.

في الداخل، كان الهدوء يخيّم على المكان، حتى ظهر الأطفال واحدًا تلو الآخر، ووقفوا في طابور منتظم برؤوس منحنية، قال الرجل بصوت غليظ:

_هذا زميلكم الجديد... ما اسمك؟.

أجاب الطفل:

_يحيى

ثم تابع:

_رحبوا بزميلكم الجديد، يحيى.

لكن الأطفال لم يبدوا اهتمامًا، ورمقوه بنظرات خاوية.

مرت الأيام الأولى بسلام، فقد كان يعامل معاملة جيدة من كامل، صاحب الميتم إلا أن الأطفال تجنبوه، ولم يعرف السبب، كان العم أحمد يزوره يوميًا، يجلس معه في الفناء، لكن زياراته بدأت تقل حتى انقطعت تمامًا.

في صباح الأول من نوفمبر، كانت السماء، محملة

بطلائع مطر قادم، جلس يحيى ينتظر العم أحمد، يلقي بالحجارة في حوض المياه وقد استسلم لفكرة أن أحمد لن يأتي، وبينما كان يتأمل وجهه المنعكس في الماء، فجأة غطس شخص رأسه في حوض المياه حتى احتبست أنفاسه وكاد يختنق، لولا تلك اليد التي تمسك بشعره سحبته في اللحظة الأخيرة، سعل بشدة ثم نظر إلى الرجل الذي أمسك به، وكان كامل، وقبل أن يعي ما يحصل تلقى منه صفعة قوية أسقطته أرضًا.

في المساء، نُقل يامن إلى مهجع الأطفال، غرفة واسعة بها خمسة أسرّة مزدوجة قفز أمامه صبي مفعم بالحياة يُدعى سليم، ورحب به، جلس يامن على سريره المتهالك وسأل:

_لماذا صفعني؟ لم أغادر الميتم.

أجابه صبي آخر:

_ كامل يعامل كل طفل جديد معاملة حسنة حتى تنقطع زيارات أقاربه.

أضاف صبي آخر:

_أغلبنا مر بنفس التجربة، الوغد جعلنا عبيدًا.

ضحك طفل أكبر سنًا وقال بسخرية:

_هذا الميتم غير قانوني، هنا لا يقع تبني الأطفال بل بيعهم، الأولاد يُباعون للعصابات والفتيات للملاهي الليلية.

في اليوم التالي، استيقظ يحيى على صوت صفارة

تشبه صفارات الإنذار وأخبره سليم بأن عليه الاعتياد عليها، فستكون منبهه الجديد، وقف في الصف مع بقية الأولاد وكان يظن أن كامل سيحضر لكنه لم يأتِ، وقدِمت بدلاً منه، خادمة ذات بشرة سوداء قادتهم نحو قاعة الطعام بعد أن فتحتها بواسطة مفتاح كان معلقًا

على رقبتها. جلس الأطفال حول طاولة مستطيلة الشكل ثم جاءت خادمة أخرى وقَدمت الخادمتان أطباق حديدية، احتوت عصيدة بيضاء.

تناول الجميع إفطارهم وهم يدفعون اللقيمات داخل أفواههم بسرعة قبل أن ينفذ الوقت المخصص لطعام ثم ينهضون إلى أعمالهم، وذهب يامن وسليم للعمل في أرض كامل المجاورة للميتم، وهكذا مرت أيام يحيى في جمع حبات الطماطم وإزالة الأعشاب الضارة حول المزروعات، حتى خشنت يداه وقُتلت آخر ذرة طفولة في ذلك اليوم، عندما ضربها يحيى بالسوط ضربًا مبرحًا من دون أن يرف له جفن أمام جميع الأطفال فقط لأن صندوق التفاح المسؤول عنه كان ينقصه تفاحة.

أغمض الولد الصغير عينيه مستسلمًا لوابل من الضربات تأتيه من كل اتجاه، وكاد يموت، لولا أن

كامل، شعُر بالتعب فتركه وأمر الخادمتين بأن يحرموه من وجبة العشاء وحذر الأطفال من مساعدته ثم صعد إلى غرفته وهو يضرب الأرض بحذائه في غضب، أما يامن فقد نهض بصعوبة يكتم تأوهاته بسبب الألم الذي هاجمه في كل خلية من جسده. سار ببطء وسط صمت الأطفال ونظراتهم العاجزة لكنه ابتسم ابتسامة ملوثة بالدم وتوجه إلى الغرفة وهو يستند إلى الحائط، ارتمى على فراشه وأطلق تأوهاته المكتومة وبعد لحظات دق الباب ثم انفتح لتظهر من خلفه طفلة شقراء بعيون زمرديه يبدوا عليها الحياء تضع يديها خلف ثوب أزرق بالي، اقتربت من سريره ثم قالت بصوت خافت:

_أنا آسفة.

رد يحيى:

_لا داع للاعتذار.

_لقد ضربك بسببي، أنا من أكلت التفاحة.

_كنت مريضة، وأغمي عليك بسبب الجوع لذلك قدمت إليك التفاحة، لم تكن غلطتك.

صمتت الفتاة ثم أخرجت يديها من خلف ظهرها وكانتا تحملان رغيف خبز بالجبن، قدمته إليه لكنه رفض أخذه قائلاً:

_أنا لست جائعًا.

فوضعته على الطاولة وهي تقول:

_ربما تشعر بالجوع لاحقًا.

ثم ركضت خارجًا، وأخذ يحيى رغيف الخبز، تطلع إليه للحظات ثم أكله وهو يبتسم.

استيقظ من نومه وتقدم نحو حائط رُسمت عليه خطوط أفقية متفاوتة الارتفاع، قاس طوله الذي أصبح مناسبًا لصبي في الثانية عشر من عمره لقد مرت السنوات

سريعا ففي الأمس كان طفلاً في الثامنة يخطوا أول خطواته في درب الحياة وها هو الآن قد كبُر بالفعل واعتاد العيش في هذا الميتم فالجميع في النهاية يتعود حتى على الألم، غير ثيابه وتسلل إلى الخارج على أطراف أصابعه كي لا يستيقظ الأطفال.

ثم ذهب إلى الفناء الخلفي، صعد على السلم إلى سطح الميتم، وجلس فوق القرميد الأحمر حيث بإمكانه رؤية مدينة نورفيل وهي تستيقظ من نومها، كان يحب النظر إليها في كل صباح ومراقبة شروق الشمس الذي كان مشهدًا نادر الحدوث بسبب مناخ المدينة الرطب، لطالما أحب يحيى نورفيل رغم أنه لم يزرها أبدًا فقد كان يعيش في هامشها في حي فقير ذو سمعة سيئة لا يدخله أحد، كما مُنع هو الآخر من الخروج من المنزل بسبب الجرائم التي تحدث كل يوم داخله، حلم أن يعيش فيها حياة عادية لا يستيقظ فيها على صوت الشتائم

والشجار ولا ينام وهو يسُد أذنيه بسبب صوت الرصاص، لا يزال يذكر تلك الليلة المشؤومة، عندما ماتت أمه برصاصة طائشة في حرب عصابات في الحي، لا يزال يذكر حرارة جسدها وهي تعانقه للمرة الأخيرة، ودخان الرصاصة يتصاعد كالسراب من ظهرها، ربما مكان وِلادته قدر، لكن مكان عيشه اختيار، هذا ما آمن به دائمًا.

فجأة سمع صوت خطوات خلفه، التفت ليجد تلك الفتاة ذات الشعر الكستنائي التي قدمت له رغيف الخبز في تلك الليلة والتي أصبحت صديقته المقربة وكانت تدعى يارا، رحب بها وجلست بجانبه تتطلع إلى السماء التي انتشرت فيها نجوم الصباح الساهرة أطبق الصمت للحظات، و هما ينظران إلى السماء ثم أخرج يحيى من جيب بنطاله قلادة فضية على شكل فراشة وقدمها

إياها، تفاجأت يارا وهي تنظر إلى القلادة الفضية بين يديها وقبل أن تنبس بكلمة قاطعها وهو يقول بخجل:

_إنها هدية بسيطة بمناسبة عيد مولدك، أعلم أنك تحبين الفراشات لذلك فكرت بأنها ستعجبك، رغم أنها رخيصة الثمن وليست أصلية لكن..

وقبل أن يواصل كلامه قاطعته بعناق، وقد لمعت الدموع في عينيها. شعر أصلان بالرضا لأنه أدخل السعادة إلى قلبها ثم انضم إليهما سليم وجلس الأصدقاء الثلاثة وعيونهم معلقة في السماء وجدائل الشمس الذهبية تشق طريقها نحوهم معلنتا عن بداية يوم جديد، كل البدايات لها مذاقها الخاص، كل البدايات جميلة، هادئة، ولطيفة محملة دائما بالأمل الذي كان ينموا داخلهم رغم قسوة الحياة، كانوا وحيدين من دون عائلة كورقة تخلت عنها الشجرة في يوم خريفي لكنها في النهاية تسقط أرضًا مع بقية الأوراق حتى

ولو سقطت فهي تضل مع عائلتها الجديدة وقف يحيى وقال بحماس يخاطب الأفق البعيدة:

_أنا قادم يا نورفيل، سأصبح رجل أعمال مشهور.

ونهض سليم وأردف:

_أنا قادم أيضا يا نورفيل وسأصبح أشهر محقق.

ثم نهضت يارا وقالت:

_انتظريني أنا كذلك يا نورفيل، سأصبح أشهر محامية.

أمسك الأصدقاء الثلاثة بأيدي بعضهم البعض ينظرون إلى الشمس التي ارتفعت في السماء وهي تشهد على أحلامهم، ومر اليوم كسابق الأيام في العمل، لكن ليله كان يخبأ الكثير من المفاجآت وأولها تلك العاصفة الهوجاء التي حلت على المدينة ضيفًا لم يتوقعه أحد إذ كان الصباح مشمس في بدايته لكن البدايات ولو كانت لطيفة وجميلة تكون في كثير من الأحيان خادعة، هطل

المطر بغزارة في تلك الليلة وكأنه الطوفان ولمع البرق وهو يشق الظلمة إلى نصفين والرياح تعوي كالذئاب الجائعة في الخارج تكاد تقتلع الأشجار من جذورها، ثم زاد هزيم الرعد من قوة العاصفة وجبروتها، تحلق الأطفال حول المائدة لتناول طعام العشاء وبعضهم اختبأ تحت الطاولة خوفًا من دوي الرعد، أما يحيى فكان هنالك ما يشغله غير العاصفة وهو اختفاء يارا وخلو مقعدها على غير المألوف، ذهب إلى المطبخ وسأل عنها الخادمة فأخبرته بأن السيد كامل قد طلبها إلى غرفته وقبل أن تكمل كلامها صعد يحيى السلالم إلى الغرفة وبمجرد أن اقترب من الباب ليسمع صوت يارا تصرخ وتستنجد وهي تقول:

_ابتعد عني.

لم يسمعها أحد في الأسفل فقد تاها صوتها وسط العاصفة، دفع يحيى الباب الذي كان مفتوحًا، ووجد

كامل ذلك الذئب البشري يحاول الاقتراب من يارا بنوايا سيئة وهي تلتصق بالجدار تدفعه بيديها الصغيرتين عنها ركض يحيى وأسقطه أرضًا لكنه نهض مجددًا في هيئة غاضبة وانهال عليه بالضرب من دون رحمة ولم تستطع يارا فعل شيء من شدة الخوف وفي تلك اللحظة دخل سليم وضرب كامل بعصا كانت في الغرفة لكن الضربة لم تؤثر فيه ودفعه بعيدًا ثم نهض وحاول الاعتداء على يارا لكن يحيى لمح سكين تقشير التفاح على الطاولة فأخذها وصرخ بصوت حاكى هزيم الرعد والتفت كامل ولأول مرة تسلل الرعب إلى عينيه بعد أن رأى الغضب يتوهج في عيني يحيى وهو يمسك بالسكينة وقبل حتى أن يستوعب عقله ما يحصل، خرق نصل السكين بطنه ولم يكتف الولد بطعنة واحدة بل سدد له ثلاث طعنات محملةً بالكره والغضب وكل الأيام السيئة التي عاشها

بسبب هذا الوحش ثم سقط جثة هامدة، كم هو هش الإنسان كلما طغى وتجبر فقط سكين تقشير الغلال يمكنها أن تضع حداً لجبروته ومات كامل مفتوح العينين، تفيض عينيه بمزيج غريب من الألم والغضب ثم عما المكان صمت ثقيل حتى العاصفة هدأت وكأنها تشاركهم هول الصدمة وسقطت السكينة أرضًا ملوثة بالدم وتسمر سليم في مكانه وكتمت يارا صرخة تريد الخروج واقترب منها يحيى وسأل بهدوء:

_هل أذاك؟.

ثم دخل بقية الأطفال وخلفهم الخادمتان اللاتان أطلقتا صرخات فزع بعد أن سمع طفل جديد الجلبة وهو ذاهب إلى غرفته في الطابق العلوي، ثم نزلت الخادمة مسرعةً، فيما ضل الجميع مصدومًا من هول المشهد. وبعد حوالي نصف ساعة دوى صوت سيارات الشرطة. حينها نهضت يارا بفزع وصرخت:

_يحيى، الشرطة قادمة ويجب أن تهرب.

لكن يحيى أردف معارضًا:

_لن أذهب أنا من قتلته... سأعترف.

_ لا يمكن سيرمونك في السجن لقد فعلت هذا لإنقاذي لن أسمح بأن تسجن بسببي.

ثم أضاف سليم:

_يارا معها حق، لن تخسر حياتك بسببه، يكفي أنه سرق طفولتك.. عليك أن تهرب يا يحيى، لا يوجد حل أخر.

نظر أحد الأطفال من النافذة وقال:

_الشرطة ستصل قريباً، يجب ألا نضيع الوقت.

وتعالت أصوات الأطفال تحثه على الهروب، ثم سحبته يارا من يده نحو الباب الخلفي ولحق بهما سليم. أما

الأطفال فحاولوا تعطيل رجال الشرطة بغلق الأبواب وقاموا بتهديد الخادمتين بفضح شراكتهم مع كامل في أعماله غير القانونية في حال أخبروا الشرطة.

ركض الأصدقاء الثلاثة في الممر حتى وصلوا إلى الخارج، وقد بدأت السحب تنقشع ولاح القمر من خلفها وقفوا أمام الجدار الذين تعودوا الهرب منه في أيام الأحد والتجول خارجاً عندما يسافر كامل إلى المدينة لشراء البضاعة التي يبيعونها في الشارع.

ثم تبادل الثلاثة أحاديث صامتة محملة برائحة الوداع وعانقوا بعضهم البعض على أمل اللقاء في يوم ما. ثم تسلق يحيى الجدار وودع صديقيه نظرة أخيرة واختفى خلفه.أما سليم فقد أسرع إلى حوض الماء وألقى بسكينة داخله لتهبط إلى القاع، وسرعان ما اصطبغت المياه بلون الدم ولكن سليم اطمئن عندما عادت قطرات المطر بالنزول، وهي ستتولى أمر تطهير الماء من

الدماء ثم أمسك يد يارا التي ظلت تنظر إلى الجدار وركض بها إلى الداخل.

الفصل الخامس

استيقظ يحيى من لُج ذكرياته، بشعور مرير من الحزن لم يزح عينيه عن تلك الشاشة، ظل جامدًا للحظات حتى صدح الصوت في القاعة مرة أخرى أمرًا إياهم بالعودة إلى زنزانتهم وفجأة همس يحيى ببرود:

_من أنت يا هذا؟.

وبدأ بتحطيم المكان من حوله وهو يصرخ بجنون

تكاد عروق رقبته تنفجر من شدة الغضب، انهارت يارا على الكرسي بصدمة والدموع تملأ عيناها أما سليم الذي كان الأكثر هدوءا بينهم، يحاول إيجاد مخرج، ثم عاد الصوت وكان ضحكات مجلجلة تعبث بأعصابهم

وتكاد تصيبهم بالجنون، وما إن تلاشى الصوت حتى أغمي عليهم جميعًا بعد أن تلقوا صدمة كهربائية من الأسوار الحديدية التي تحيط بمعصم كل واحد.

كان الضوء المتسلل عبر نافذة ضيقة في أعلى الزنزانة، يرسم خيوطًا باهتة على وجوههم، وجوهٍ اعتادت على العتمة.

كانت يارا تجلس في ركن الزنزانة، ظهرها مسند إلى الحائط، عيناها تنظران في الفراغ بينما تفكر في زاوية أخرى كان سليم يتحرك ذهابًا وإيابًا، مشحونًا بتوتر لا يفارقه منذ أن استيقظ هنا قبل يومين أما يحيى فقد كان يجلس بصمت، رأسه منخفض وكأنه يراجع في ذاكرته شريط حياته، شريط يطارده بلا رحمة.

كل واحد منهم كان غارقًا في أفكاره، لا شيء يربط بينهم سوى صمت المكان وصوت أنفاسهم المتقطعة حتى جاءت تلك اللحظة الحاسمة، عندما كسرت يارا

الصمت قائلة بصوت مبحوح وهي لا تزال تحت تأثير ما رأته:

_ذلك... هل كان حقيقياً؟.

خلف الجدار جاءها صوت سليم وهو يقول ببطء كأنما يحاول استيعاب ما يحصل:

_ كل ذلك كان حقيقيًا، تسألت عن الرابط الذي قد يجمع ثلاثتنا، والآن اتضح كل شيء، نحن الثلاثة كنا في الميتم ذاته.

سقطت كلماته كالصاعقة عليهما. كان هناك شيء في كلمة، "الميتم"، يجعل الدم يتجمد في عروقهما.

قالت يارا بصوت متهدج:

_ لقد كنت هناك، أنا التي تسببت في تلك الجريمة.

_ لا شأن لك بذلك، لقد سقط في شر أعماله كان يستحق الموت.

أردف يحيى وقد بدا أكثر تأثراً بالكلام.

ثم أضاف سليم:

_ كلنا شاركنا في الجريمة تلك الليلة، لقد أخفيت سلاح الجريمة بنفسي.

لحظات من الصمت أعقبت كلماته، وتعرف الثلاثة على بعضهم، لقد جمع القدر بينهم مجددًا بعد كل هذه السنوات وجعلهم يدفعون ثمن تلك الجريمة بموت أحبتهم، لكنها لم تكن جريمة، كانت دفاعًا عن النفس فلماذا محكمة القدر ظالمة هكذا؟.

عادوا إلى الصمت، يسترجعون ذكرياتهم ويفكرون في طريقة تساعدهم على الهرب.

كان يحيى يمرر يده على الحجارة المتشققة يتفحص تفاصيل الجدران كأنها خريطة تحمل أسرار الهروب أما يارا فقد كانت تجلس في زنزانتها، تحدق في السوار

الحديدي الذي يطوق معصمها، ذلك السوار اللعين الذي يصعقهم كلما حاولوا التحرك بسرعة أو اقتربوا من الأبواب، كان السوار رمزًا لكابوسهم، وفجأة قفزت إلى ذهنها فكرة فأردفت بصوت عالي.

_ماذا لو كان السوار نفسه هو المفتاح؟.

_ماذا تقصدين؟.

سأل يحيى بفضول، وقد كان يستمع عبر الجدار

أخذت يارا نفسًا عميقًا قبل أن تشرح.

_إذا تمكنا من تعطيل هذه الأساور، فلن يكون لدينا شيء يقيدنا أو يمنعنا من الهروب، علينا إيجاد طريقة لتحطيمها.

وافقها سليم الفكرة برغم أنها بدت مستحيلة في البداية فالأساور مصنوعة من معدن متين، وكانت الزنزانة

خالية تمامًا من أي أدوات يمكن أن تساعدهم في كسرها حتى أردف يحيى:

_ ماذا لو استخدمنا الحجارة البارزة في الجدران، إذا ضربنا الأساور بها، ربما نتمكن من إحداث خلل ما.

بدأوا المحاولة بلا تردد، كل منهم يضرب السوار الخاص به بالحجارة التي تبرز من الجدران المتشققة كانت المحاولات شاقة، وكل ضربة تزيدهم تعبًا، لكنهم لم يتوقفوا.

استغرق الأمر منهم ساعات من الضربات المستمرة حتى بدأت الشرارات تتطاير من سوار يحيى وانبعث منه صوت طقطقة خافت، يكاد لا يُسمع، لكنه كان كافيًا ليشعل الأمل في قلوبهم.

"لقد تعطل!" صاح يحيى وعيناه تلمعان بتوهج النصر.

اندفعت يارا وسليم نحو الحجارة، يحاولان تعطيل أساورهما بنفس الطريقة، وبعد دقائق من المحاولات، تحطمت الأساور وتحررت معاصمهم أخيرًا من تلك القيود التي كانت تصعقهم كلما حاولوا الحركة.

ثم وقف الثلاثة أمام باب الزنزانة، يجتاحهم شعور متناقض من الفرح والتوتر تقدم يحيى بحذر نحو باب الزنزانة، ودفعه بقوة، لم يكن يظن لوهلة أنه سينفتح بكل تلك السهولة ويجد نفسه في الخارج، لقد كان الباب مفتوحًا طوال الوقت، خرج سليم ويارا ترتسم على ملامحهم امارات الصدمة والاستغراب، لكن لم يكن هنالك وقت لتساؤلات وقفوا معًا وهم ينظرون إلى الممر الطويل ثانية والذكريات تفر من الجدران وتهاجمهم من كل زاوية لقد عادوا إلى ذكرى تلك الليلة عندما ركضوا إلى الخارج حتى ينقذوا يحيى التي تلطخت يداه بدماء صاحب الميتم.

أردف سليم بصوت منخفض:

_ يجب أن نستعد لأي خطر، لا أظن أن الهرب سيكون بهذه السهولة.

أومأ يحيى برأسه إيجابًا وعيناه تراقبان المكان من حوله بحذر بينما حاولت يارا الحفاظ على هدوئها.

وصلوا إلى ساحة الميتم، كان كل شيء لا يزال في مكانه، الأرجوحة الصدئة التي لم يعد يظهر منها إلا القليل بسبب الأغصان التي التفت حولها، وحوض المياه الذي جفت مياهه منذ زمن وقد خُيل لسليم أنه مليء بالمياه الملوثة بالدم، لا شك أن تلك السكينة لا تزال داخله، كانت السماء رمادية ذلك الصباح

احتشدت فيها غيوم داكنة تنذر بمطر قادم ونسيم بارد يلفح وجوههم، وهو يحدقون في ذلك الشخص الذي ظهر أمامهم فجأة تختفي ملامحه خلف كمامة سوداء لا

تظهر سوى عيونه العسلية الجوفاء، يرتدي السواد ويحمل في يده مسدسًا ذهبيًا وعلى يده وشم فراشة حمراء، استعد سليم ويحيى لأي هجوم مفاجئ، أما يارا فقد اختبأت خلف يحيى وهي تنظر إلى تلك العيون التي تعرفها جيدًا. استمر الهدوء للحظات قبل أن يمزق ذلك الشخص الغامض أحشاء الصمت ويخلع الكمامة عن وجهه لتنكشف ملامحه التي لم تتعرف عليها سوى يارا صرخ يحيى غاضبًا:

_ من أنت؟.

أجاب الشاب بابتسامة خبيثة وهو يحدق في يارا:

_ اسئل حبيبة طفولتك.

التفت يحيى وسليم إلى يارا بنظرات مستنكرة وقبل أن ينطق أي منهما، أردفت يارا بنبرة مضطربة وهي تقاوم دموعًا توشك على النزول:

_ إنه أرسلان الشخص الذي خطف أخي، لقد ادعا أنه يساعدني لكنه اتضح أنه هو الخاطف.

صرخ سليم بغضب:

_لماذا لم تخبرينا أنك رأيتِ الخاطف.

_لم أكن أريد توريطكم معي، لقد كنت السبب في كل ما حصل في الماضي، وقد وثقت في الشخص الخطأ مرة ثانية أردت أن أتحمل المسؤولية بنفسي هذه المرة.

وقبل أن يقول سليم شيئًا قطعه صوت يحيى وهو يخاطب أرسلان قائلاً:

_من أنت؟ وما علاقتك بالميتم؟.

قهقه أرسلان ثم أردف بسخرية:

_ أخيرًا شخص منكم يسأل سؤالاً ذكيًا، في الواقع ظننته سيأتي من المحقق لا القاتل المأجور، القتلة أكثر ذكاءً دائمًا.

لم يستوعب سليم ويارا ما سمعوه لتو هل يعقل أن يكون صديق طفولتهم قاتلاً مأجورا، ماذا يفرق إذا عن هذا المعتوه؟، صرخ سليم مجددًا:

_ لقد سألك من تكون، أجبه.

تعالت ضحكاته المستفزة وهو مستمتع بحرب الأعصاب الذي أوقعهم فيها وقال:

_ حاضر سيادة المحقق، إن كان هذا طلبكم...

صمت لبرهة ثم واصل بنبرة غامضة وقد اختفت تلك الابتسامة الساخرة وأصبحت عيناه تلمعان بغضب واضح:

_ أقدم لكم نفسي، أنا سامر ابن صاحب الميتم الذي تشاركتم جميعًا في قتله.

صدم الثلاثة مما سمعوه وهم يحاولون استيعاب ما يحصل، واستمرت لحظات الصمت المشحون بالتوتر قبل أن يصرخ سامر بهستيريا:

_ أبي، كان يكرهني دون سبب، عندما مات ظننت أني سأرتاح. لكن أمي انتحرت بعد يومين بعد أن فُضحت أعماله غير القانونية، كنتم السبب في موت أمي."

أردف يحيى ببرود:

_ الذي تقول عنه والدك، كان وحشًا حقيقيًا تحرش بفتاة صغيرة، كان يستحق الموت ولم أندم للحظة على قتله.

أجاب سامر وهو يرتجف وكأنه يواجه شيطانًا داخليًا لا يمكن التغلب عليه:

_ لقد تسببتم في موت الشخص الوحيد الذي تقبلني أنا أكرهكم وأكره أبي.

تدخل سليم قائلا:

_ والدك هو السبب وليس نحن.

أضافت يارا:

_لقد كان وحشا، يعاملنا بقسوة، لم نكن نريد أن نتسبب في كل هذا، كنا ندافع عن أنفسنا.

صرخ سامر بجنون وهذه المرة كانت صرخته أقرب للبكاء:

_ يكفي أعذارًا، لقد تسببتم في معاناتي.

قال ذلك وهو يرفع السلاح بيدين مرتجفتين، كانت قبضته تضعف وتقوى مع كل كلمة ينطقها، وكأنه لا يملك السيطرة الكاملة على جسده.

اندفع يحيي أمام يارا وجعلها تختبئ خلف ظهره، كانت تشعر وهي تنظر إليه بمزيج من الحزن والحنين، بطلها والشخص الذي أحبته عاد ليحميها مجددًا، كانت تظن

أن البرود الذي اصبح عليه جعله ينساها لكنها كانت مخطئة لا يزال هو كما عرفته منذ الطفولة، ذلك الصبي الذي أهداه قلادة الفراشة، وفجأة، ودون سابق إنذار ضغط سامر على الزناد.

انطلقت الرصاصة باتجاه يحيى الذي لم يتحرك من مكانه، لكن يارا دفعته في لحظة خاطفة واخترقت الرصاصة جسدها، وسقطت على الأرض، كانت عيناها تتسع ببطء، وفمها مفتوح وكأنها تحاول أن تتنفس لكن الهواء لم يكن كافيًا.، وبدأ الدم يتسرب بسرعة مخيفة، يشكل بركة صغيرة تحتها.

"يارا!" صرخ سليم، لكن صوت صراخه كان كمن يغرق في بحر من الرعب والعجز. أما يحيى فظل متسمرًا في مكانه، تفيض عيناه صدمة وفجيعة ثم بدأت عينا يارا تنغلقان تدريجيًا. وبدأ وعيها يتلاشى، وأصبحت الرؤية أمامها ضبابية، حتى لم تعد ترى

سوى ظلال باهتة. وهب إليها سليم محاولاً إسعافها وإيقاف النزيف، فيما اندفع يحيى نحو سامر سريعا وعيناه تحملان غضب العالم بأسره وبحركة سريعة أسقط السلاح من يده وصرخ "كفى" وهو يدفع سامر على الأرض، ويسدد له لكمات متتالية محملة بالغضب والحزن واليأس، أما سامر فلم يكن يقاوم كانت نظراته غريبة لا يمكن أن تعود لشخص عاقل، جسده يرتجف بشدة، وأنفاسه متقطعة، وعيناه زائغتان وكأنهما تبحثان عن شيء لم يعد موجودًا في هذا العالم.

"لقد انتهى الأمر!" قال يحيى بنبرة حادة وهو يأخذ المسدس من على الأرض ويوجهه نحوه، كاد أن يضغط على الزناد وينهي كل شيء لكن كلمات سليم أوقفته وهو يصرخ:

_ لا تفعلها يا يحيى، لا تفعلها يا صديقي، لا تكن قاتلاً مجددًا، شخص مثله لا يستحق أن تصبح وحشًا بسببه.

نظر يحيى إلى سامر نظرة أخيرة ثم أنزل المسدس وفجأة حصل ما لم يتوقعه أحد، استقرت رصاصة خائنة في جبين سامر ومات مفتوح العينين في نظرته الأخيرة مزيج غريب من الصدمة والحزن، جال يحيى بنظره في المكان من حوله لكنه لم يستطع تحديدًا مكان القناص الذي أنهى حياة سامر.

كان متأكدًا من أنه أحد أعدائه، اقترب من يارا التي لا تزال ممدة على الأرض تتنفس ببطء، بجانبها سليم الذي لم يعد يفهم ما يحصل، حملها يحيى بين يديه وتبعه سليم وخرج الأصدقاء الثلاثة من بوابة الميتم الذي لم يحمل لهم سوى الألم.

مرّت ثلاثة أشهر على تلك الحادثة، واستيقظت يارا أخيرًا من غيبوبتها، فتحت عيناها ببطء وتشكلت لها صورة سليم الذي كان جالسًا بجانبها، بملامح مرهقة تشي بقلة نومه، ابتسم إليها وأردف :

_ أخيرًا... استيقظتِ.

سألت يارا بصوت خافت:

_ ما الذي حصل؟.

أجاب سليم بنبرة مطمئنة:

_ لقد أصبت برصاصة، ونقلناك أنا ويحيى لمستشفى أما سامر فقد قُتِل على يد شخص مجهول وانتهى كل شيء.

_ أين يحيى؟.

أخفض سليم رأسه، وصمت للحظة قبل أن يجيب بحزن:

_لم نتمكن من العثور عليه لقد اختفى منذ ذلك اليوم.

في ذلك الصباح من شهر نوفمبر، فُتح باب الميتم الذي أصبح مهجورًا تمامًا، خطت تلك الأقدام إلى

الداخل ثم رمى أحدهم قداحة مشتعلة في بساط مهترئ سرعان ما احترق وبدأت النار تلتهم كل ما يعترض طريقها، ثم غادر الفناء والنيران تتصاعد من خلفه.

التفت إلى السطح لأخر مرة وكان الأطفال الثلاثة جالسين على القرميد، يلحون له بسعادة، لوح هو الأخر لهم ثم اختفوا خلف الدخان المتصاعد.

غادر المكان يحث الخطى في ذلك الزقاق المقفر، إلى أن وصل إلى سيارة سوداء بجانبها رجل يرتدي ملابس رسمية، فتح له الباب الخلفي. بينما جلس الرجل إلى مقود السيارة، وقبل أن يشغل المحرك، قدم صندوقاً أسوداً صغيراً إلى سيده الذي تأمله لبرهة ثم فتحه وأخرج منه خاتماً يحمل نقش فراشة بلون أحمر قاني، وضعه في إصبعه، وانعكست ملامحه الباردة في مرآة السيارة، كان ذلك الشخص يحيى.